

جسر الأُحلام

قصة قصيرة

المؤلف: تانيزاكي جون ايتشيروو

ترجمة: عبد القادر محمد الكريدى
مدرس اللغة اليابانية بجامعة القاهرة

جلسر اللؤلؤ

قصّة قصيرة

المؤلف: تانيزاكي جون ايتشيرو
ترجمة: عبد القادر محمد الكريدي
مدرس اللغة اليابانية بجامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء
للذكرى الخالدة

قام زوجي العزيز بترجمة هذا العمل الأدبي عام 1985 حين كان يبلغ من العمر 25 عاماً وذلك خلال بعثته الدراسية في اطار منحة دراسية مقدمة له من اليابان للقيام بعمل رسالة الماجستير.

وهب زوجي حياته للعلم والعمل في مجال الترجمة وأيضاً مجال تعليم اللغة العربية لليابانيين. فكان يعشق الترجمة ويجيدها منذ أن كان طالباً قبل التحاقه ببرنامج الماجستير. ويرجع هذا التفوق والعشق للغة إلى تعرفه على أحد الأصدقاء اليابانيين في كلية الاقتصاد التي كان يدرس بها وأخذ يعرفه على كثير من اليابانيين فتعلم اللغة وأجادها وساعده الأساتذة اليابانيون في التحويل من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية إلى كلية الآداب-قسم اللغة اليابانية حيث كانوا يترددون على العميد في محاولة للاحاقه بالصف الثالث بقسم اللغة اليابانية بدلاً من الصف الأول. وكم لاقى من تحديات من أهله لمعارضتهم له لضياح سنة من عمره قضاهها في كلية السياسة والاقتصاد ضمن (كليات القمة) ليبدأ المشوار من البداية في قسم اللغة اليابانية. وعند ترده مع الأساتذة عند العميد كنت أتردد مع والدي وصديقه أنا أيضاً عند العميد_ في نفس الوقت_ لمحاولة التحويل من قسم اللغة اليابانية إلى قسم اللغة الإنجليزية حيث أنني لم أكن أستوفى شروط الدخول لوجود فرق درجتين حالوا بيني وبين دخول قسم اللغة الإنجليزية. ودخلت لأداء امتحان دخول قسم اللغة الإنجليزية الذي كان سهلاً إلا أن المدرسة الانجليزية حرمتني من اجتيازه لعدم استيفاء الشروط. وشاء القدر أن يستطيع زوجي الالتحاق بقسم اللغة اليابانية في الفرقة الأولى ورُفِضَ طلبي أنا في أن التحق بقسم اللغة الإنجليزية وبقيت في اللغة اليابانية بالفرقة الأولى.. تعرفت على زوجي الذي كان يتميز بالطيبة وحسن الخلق والتفوق. وشاء القدر أن أصبح شريكة حياته فسرنا معاً في الحياة الدراسية والاجتماعية.. قمنا بعمل الماجستير في اليابان وأكرمنا الله تعالى بابننا الحبيب أشرف. شاء القدر أن يسبقني زوجي إلى الله فجأة وهو في منتصف العمر عام 2010 عن عمر يناهز 52 عاماً فنسأل الله له الرحمة والمغفرة ونحتسبه شهيداً إن شاء الله حيث كان ضحية فيروس سى. مع الأسف لم يتمكن زوجي من نشر قصة (جسر الأحلام) التي قام بترجمتها من اليابانية إلى العربية، وهي للمؤلف (الذي كان هو موضوع رسالة ماجستير زوجي (صورة الأم عند تانيزاكي جونيتشيرو)). أقدم أنا وابني الحبيب لروحه الطاهرة نشر هذا العمل الذي قام بأدائه لعله يكون نافعاً في مجال الأدب ونشر الثقافة اليابانية في العالم العربي.

لكم جزيل الشكر..

حرم الدكتور/ عبد القادر

أشرف عبد القادر

4 ديسمبر 2013

4 صفر 1435

بعد أن قرأت الفصل الرابع والخمسين:

اليوم بينما الوقواق يغرد

فى عش مالك

عبرت جسر الأحلام

نظمت أمى تلك الأبيات وصدرتها بالعبارة السابقة. ولكن بجانب أمى الحقيقية كانت لى أم أخرى ألا وهي زوجة أبى. وأظن أن أمى الحقيقية هى ناظمة تلك الأبيات وان لم أكن على يقين من ذلك. وسوف تتضح أسباب هذا فيما بعد. أحد هذه الأسباب أن امرأتين كلتيهما لها نفس الاسم: تشينو. وأتذكر أننى سمعت فى أثناء طفولتى أن جدي أسمى أمى هذا الاسم نسبة الى خليج "تشينو" الذي ولدت بالقرب منه فى فيلا يمتلكها فى "هاماديرا"، أما أسرة أمى فكانت من "كيوتو". كما كانت أمى تدعى بهذا الاسم فى السجلات الرسمية. وكذلك أمى الثانية كانت تدعى "تشينو" دائماً منذ زواجها من أبى، ولم تعد تستخدم اسمها الحقيقى تسونيكو بعد ذلك. وخطابات أبى الى أمى كانت كلها موجهة الى "تشينو"، ولا يمكن أن نعرف من ذلك الاسم فقط من يقصدها من امرأتين.

كذلك الورق المزخرف الذي كتبت عليه هذه الأبيات كان مدوناً به اسم "تشينو" دون توضيح أى من امرأتين. وعلى أية حال فأننى لم أسمع عن أبيات شعر أخرى كتبتها أمى. ولقد عرفت هذه الأبيات لأن لفيفة الورق المزخرف المدونة بها بقيت معلقة فى بيتنا كترات لأسرتى. ووفقاً لما تقوله مربيتى القديمة التى مازالت تعيش للآن وقد جاوزت الستين من عمرها، فإن هذا الورق كان يطلب خصيصاً من مكان يسمى "تاكيفو" يقع فى منطقة "ايتشينز"، ويصنع بالطريقة اليدوية الأصيلة بغمسه فى الماء وتركه ليتمص دومة من الحبر فيتخذ شكلاً موجاً، وقد لاقت أمى مشقة كبيرة لاقتنائه حينذاك. وحتى بعد التحاقى بالمدرسة الابتدائية لم أكن أقدر أن أقرأ حروف هذه الأبيات بسهولة. وذلك لأنها مخطوطة بأسلوب كونوى سنميا كوين الذي تكثر به حروف الكتابة الصعبة المعروفة باسم "مانيوجانا"، وبطبيعة الحال تتعذر قراءتها على الأطفال بل ان الكبار أيضاً يلاقون بعض الصعوبة فيها. ولم تعد تلك الحروف تستعمل فى هذه الأيام سواء من جانب الرجال أو النساء. وأتذكر أنه كانت لدينا كروت للعبة كوتشينة الشعر كتبتها أمى أو زوجة أبى بنفس ذلك الأسلوب، وجاء فيها بيت شعر كهذا: "بين أشجار القيقب القرمزية التى تشبه القماش المطرز الجميل...."

ولست مؤهلاً للحكم على مستوى هذا الخط، ولكن مربيتى اعتادت أن تقول: سمعت أن هذا الخط الجميل لم يكتب من قبل.

كما أنى وان كنت غير ملم بهذا الفن، أعتقد أنه كتب بمهارة بالغة. والأمر الذي يدعو للاستغراب حقاً هو أن أمى فضلت هذا الأسلوب من الخط السميك الممتلئ بحروف الكانجى بينما كانت عادة النساء أن تكتبن بأسلوب مدرسة "كوزى" الذي يستعمل حروف "كانا" وهو يمتاز بالضالة والرشاقة. وهنا نلمح الشخصية المتميزة لتلك المرأة. كما لا أجد فى نفسى الأهلية للتعلق على أبيات الشعر، وان كنت أشعر أنها ليست ذات قيمة خاصة. وربما كان بيت "عبرت جسر الأحلام" يعنى "اليوم قرأت "جسر الأحلام" آخر فصول "حكاية جينجى". وحيث أن هذا الفصل قصير ولا تستغرق قراءته حتى بضعة ساعات، فهى بلا ريب تقصد أنها اليوم قد فرغت من قراءة "حكاية جينجى" حتى نهايتها. أما "عش مالك الحزين" فهو الاسم الذي كان يعرف به بيتنا منذ عهد جدي. ويرجع سبب هذه التسمية الى أن طيور مالك الحزين كانت تحط ليلاً على حديقته. ومازالت تلك الطيور تاتى اليه حتى الآن، ولذلك فأنى دائماً أسمع صياحها جاجة جاجة وان لم يتفق لى رؤية احداها الا فى النادر. ويقع بيتنا عش مالك

الحزين_ فى دهليز يقطع غابة تاداسو فى كيوتو من الشرق الى الغرب. فاذا سرت فى الغابة والى يسارك المبنى الرئيسى من ضريح "شيموجامو"، لوجدت بعد مسافة قصيرة جسراً حجرياً ضيقاً يجرى أسفله جدول صغير، واذا عبرت هذا الجسر ظهرت أمامك مباشرة بوابة بيتنا. وقد وردت أبيات الشعر التالية التى نظمها الشاعر "كامونوتشوميه" فى ديوان الشعر اليابانى "شينكوكينشو":

فى جدول سيمى الضحل عند ايشيكاوا
لما يصفو الماء ينعكس فيه القمر وهو يتبعه

ويقول سكان هذه المنطقة أن الشاعر يقصد هنا هذا الجدول الذى يجرى أسفل الجسر الحجرى المواجه لبوابة بيتنا. ويصف "يوشدا توجو" فى معجمه الجغرافى هذا الجدول قائلاً: ان المقصود هنا هو الغدير الذى يقع الى الشرق من ضريح شيموجامو ويصل الى جنوب ضريح "تاداسو" ثم يصب مياهه فى نهر "كامو". ويضيف قائلاً: ولكن المقصود بالجدول الضحل الذى ورد ذكره فى الكتابات الطوبوغرافية القديمة هو نهر كامو نفسه أما الغدير السابق فليس الا رافداً من روافده ينبع من "ماتسوجاساكي". وأمى الى تصديق هذا الرأى حيث ورد فى احدي المبارزات الشعرية قول تشوميه: وهذا الجدول الضحل يسمى "سيمى" هو الاسم القديم لنهر كامو. كما ذكر نهر كامو مرة أخرى بهذا الاسم فى بيت من الشعر نظمته الشاعر "جوزان" سأعرض له فيما بعد. وقد جاءت فى تصديره لهذا البيت العبارة التالية: عندما لم أستطع أن أعبر نهر كامو الى كيوتو.

وبالطبع لم يعد هذا الجدول الآن صافياً ورائقاً كما كان فى الماضى، ولكنى حتى صباى عهديته صافياً ونظيفاً كما وصفه تشوميه فى شعره. وأتذكر أن الناس كانت فى أوائل يونيو تستحم فى مياهه الضحلة أثناء طقوس التطهر.

وكانت بركة حديقة بيتنا تتصل بهذا الجدول عن طريق ماسورة صنعت من الطمى المحروق لكي تصرف المياه عندما تفيض فيها. وكان الداخل من بوابة بيتنا العمومية، التى بنيت على عمودين سميكين صنعا من خشب الأرز، يسير على ممشى يغطيه الحجر اللوحى ويوصل فى نهايته الى بوابة داخلية. وزرعت على جانبي هذا الممشى أشجار الخيزران الصغيرة بينما وقف على كل جانب تمثال حجرى أحضر من كوريا، ويمثل هذان التمثالان موظفين من البلاط الامبراطورى الكورى فى عهد الأسرة "رى" أما البوابة الداخلية فيعلوها سقف يكسوه لحاء شجرة السرو، وترتفع على عمودين يحمل كل منهما لوحة خيزرانية صغيرة نقش عليها أحد بيتى المقطع الشعرى الصينى.

عميقاً فى الأريكة تمرح الطيور مبهجة
وبعيداً عن الغبار تصفو أشجار الخيزران والصنوبر

ولكن أبى لم يكن يعلم شيئاً عن الشاعر الذى نظم هذين البيتين ولا الخطاط الذى كتبهما. وعندما يدق الزائر جرس الباب، الذى يوجد زره بجانب لوحة الخيزران، يخرج من يفتحه له. ثم يسير الى الباب الأمامى تظله أشجار الكستناء الضخمة، فيصير فى صالة الاستقبال

الرئيسية، وأول ما يراه هنا لوحة خطية كتبت بفرشاة الشاعر " راى سانيو"، دونت عليها الكلمات التالية:

الصقر حائم فى السماء
والسمك غائص فى الماء

ولأن ما يضيفى على عش مالك الحزين قيمة كبرى هو حديقته المونقة التى تصل مساحتها الى حوالي الفدان، فقد كانت الدار نفسها غير واسعة جداً. فتتكايفها ثمانية غرف بما فيها حجرة الخدم وتسع أربعة حصر يابانية وصالة الاستقبال الصغرى وتسع حصيرتين. أما المطبخ فكان فى حجم المطعم العادى، وقد حفرت بئر ارتوازية بجوار بالوعته. وفى أول الأمر كان جدي يقطن مسكناً فى شارع يسمى "موروماتشى" الى جوار معبد "بكو"، أما عش مالك الحزين فكان بمثابة فيلا يأوى اليها للاسترخاء. ولكنه باع هذه الدار فيما بعد وانتقل للإقامة فى عش مالك الحزين بعد أن أضاف اليه مستودعاً يتكون من ثلاثة طوابق فى شمال غربها. ولم يكن التردد بين الدار والمستودع أمراً يسيراً حيث كان علينا أن نمر بالمطبخ.

وكان أهل الدار سبعة هم أنا وأبى وأمى ومريبتى أوكانى وثلاث خادومات، فكان عدد الغرف يكفي لإقامتنا اقامة مريحة. وكان أبى يقضى أكثر أوقاته بالبيت، ولم يكن يحب الاختلاط بالناس، فلم يكد يخرج من البيت الا قاصداً البنك بين حين وآخر. كذلك لم يكن يستقبل ضيوفاً بالبيت الا فى النادر. أما جدي فكان يحب اقامة حفلات الشاى اليابانية ويحب الاختلاط بالآخرين، ولهذا فقد أحضر بيتاً عتيقاً من بيوت حفلات الشاى وشيده بجانب البركة. كما أقام مكاناً آخرأ مخصصاً للترفيه أطلق عليه اسم "مقصورة شجرة الست المستحية"، وذلك فى ركن يقع الى جنوب شرق الحديقة ولكن بعد وفاته اقتصر استخدام كل من بيت حفلات الشاى والمقصورة على أخذ سنة من النوم بعد الظهر أو القراءة أو التمرن على كتابة الخط.

وكان أبى يكرس كل حبه نحو أمى، وظهرت عليه السعادة والرضاء بهذه الدار وهذه الحديقة وهذه الزوجة. وأحياناً يدعو أمى لتعزف على أوتار الكوتو ويجلس منصتاً لها فى انتباه شديد. وتلك كانت تسليته الوحيدة بالبيت.

ولأول وهلة تبدو حديقة بيتنا التى تنقص مساحتها عن الفدان صغيرة بحيث يكون من المبالغة تسميتها حديقة مناظر حقة. بيد أن هذه الحديقة صممت بعناية بالغة على يد جنائى بارع يدعى "أويسو"، فكان شكلها يوحى بعمق وعزلة أكثر مما كانت عليه فعلاً. وعندما يمر المرء من الباب المنزلق متجهاً الى الجانب الآخر من صالة الاستقبال الرئيسية، يجد نفسه فى غرفة تسع ثمانية حصر. والى الخلف من تلك الغرفة تقبع غرفة أخرى واسعة قوامها اثنا عشر حصيرة، وتلك هى أوسع حجرات الدار. وقد شيدت على أسلوب القصور موصلة بشرفة تطوقها من الشرق الى الجنوب، ويحدها درابزين شيد بأسلوب كلاسيكى. وفى الناحية الجنوبية تظللها تعريشة لحجب حرارة الشمس تكسوها أوراق الكرمة الكثيفة التى تتدلى على البركة. وأسفل تلك الأوراق كانت مياه البركة ترتطم برفق بدرايزين الشرفة. وكان الناظر من الشرفة عبر البركة يشاهد وهو متكنأ على الدرايزين سلالاً تتساقط مياهه من تل انتشرت فى جوانبه أشجار كثيفة، وتحوطها أزهار الطرليوس فى الربيع والبغونية فى الخريف، وتسقط هذه المياه فى البركة بعد أن تصير للحظات غييراً صغيراً وهي فى الطريق لها. وعند تقاطع هذا الغدير مع البركة وضع جهاز صنع من الخيزران الأخضر يسمى "هاون الماء"، ف بمجرد أن تمتلئ أنبويته الخيزرانية بالماء تسقط لأسفل باعثة طقطقات هامسة ثم تسكب ما بها من ماء. ولكي يودى هذا الجهاز عمله يفترض أن تصنع أنبويته من الخيزران الأخضر الطرى

وأن تكون حافتها مهندمة بيضاء نظيفة. ولذلك كان البستانى دائم التردد علينا لابدال الخيزران.

ولقد ورد ذكر هاون الماء فى أبيات الشعر التالية فى ديوان "زوكومونيوشو"

هل تضاءلت المياه فى أعلى النهر؟

فأكاد لا أسمع صوت هاون الماء

وإلى اليوم مازال هاون الماء مستعملاً فى حديقة بهو الشعراء فى منطقة "راكوهوكو" كما يعرض هناك نصاً توضيحى كتبه الشاعر "ايشيكافا جوزان" بالصينية ويشتمل على وصف لهاون الماء. وربما زار جدي تلك الحديقة وقرأ ذلك الوصف ففكر فى أن يقلده فى بيتنا. وكان جوزان قد نظم أبياتاً من الشعر يعتذر بها عن تلبية دعوة وجهها له الامبراطور، وهي الأبيات التى صدرها بالتصدير السابق الذكر

واحسرتاه فانى أخجل من عبور الجدول

فهو ضحل ولكنه سيعكس شيخوختى المتجعدة كالأمواج

ويعلق كليشيه لهذه الأبيات فى فجوة فى جدار "بهو الشعراء" كما لدينا آخر فى بيتنا. وعندما كنت فى الثالثة أو الرابعة من عمري كنت مفتوناً بصوت الطقطقات المنبعثة من هاون الماء المقام ببيتنا. وكانت أمى تحذرنى بشدة منه قائلة: اياك أن تذهب هناك والا سقطت فى البركة.

ولكنى لم أكن أعاباً بكلامها فأجرى نحو الحديقة وأشق طريقى بين أعشاب الخيزران على التل الاصطناعى قاصداً حافة البركة.

" انتظر، هذا خطر، لا يصح أن تذهب هناك وحدك."

وتهرول ورائى أمى أو مربيتى فى انزعاج شديد وتمسك حزامى من الخلف بقوة بينما أتلوى متضايقاً وأختلس نظرة للماء. فكنت أرى أنبوبة الخيزران الخضراء فى هاون الماء وهي تمتلئ رويداً رويداً ثم تحدث طقطقة وتسقط على البركة ساكية ما بها من ماء ثم ترتد بعد ذلك لمكانها فارغة، وبعد دقيقة أو دقيقتين تمتلئ مرة أخرى مكررة العملية. إن صوت تلك الطرقات لهو أقدم الذكريات التى ما زالت ناشبة فى مخيلتى عن بيتنا، وكان صدها يتردد فى أذنى ليلاً ونهاراً حتى كبرت.

وكانت المربية تراقب لهوى عن كتب ولم تكن تدعنى أفارقها قط. ومع ذلك كانت أمى كثيراً ما تعنفها قائلة:

" حذراً يا أوكانى، لا يجب أن تسرحى هكذا."

ويمتد على البركة جسر للمشاه مغطى بالطمي وكلما حاولت أن أعبره أوقفتنى المربية بلا ريب، بل أحياناً كانت أمى نفسها تعدو لاهثة خلفى أيضاً. وكانت البركة ضحلة فى معظم بقاعها فيما عدا موقع واحد يربو عمقه عن طول انسان، وقد نشأ عن حفرة شقت فى باطن البركة حتى تهرب إليها أسماك الشبوط والروش اذا ما جفت بقية البركة.

كان هذا الموضع يقع بالقرب من الجسر وحذرتنى منه أمى مراراً قائلة: يا لها من مصيبة اذا سقطت هناك، فحتى الشخص الكبير لا يمكنه الخلاص منه.

وعلى الجانب الآخر من الجسر كانت تقام تعريشة ويقع بيت حفلات الشاي اليابانية الى الغرب منها. وكان يطيب لى أن أدع المربية تنتظرني بالخارج بينما أدخل هذا البيت بمفردى قانلاً لها:

اياك أن تتبعينى، انتظرى بالخارج.

وكان سبب سرورى به أنه يبدو بسقفه المنخفض وحجمه الصغير كبيت لعبة بنى خصيصاً ليلهو به الصغار. فكان ملعبى الذي ألهو فيه ساعات طويلة فأتمد على أرضيته أو أمر من مداخله الصغيرة وأفتح صنبور الماء وأغلقه أو أفك الحبال المجدولة حول الصناديق الخشبية وأخرج ما بها من أدوات الشاي أو أرتدى احدى القبعات العريضة المصنوعة من نبات الأسل المخصصة لاستعمال الضيوف فى الأيام المطيرة ثم يبدأ القلق يساور مربيتى الواقعة بالخارج فتنادينى صائحة:

هلم يا تاداسو، يكفي هذا والا غضبت أمك، وفى أحيان أخرى تصيح:

أنظر أنظر، توجد هنا حشرة أم أربع وأربعين. يا لها من مصيبة حقاً اذا التهمتكم. ولقد رأيت فعلاً فى بيت الشاي بعض حشرات أم أربع وأربعين الكبيرة الحجم عدة مرات ولكنها لم تلدغنى أبداً. أما ما كان يفزعنى حقاً فهو خمسة أو ستة تماثيل حجرية لرهبان بوذيين تقف فى أرجاء التل وحول البركة. وهي تصغر كثيراً عن التمثالين الكوريين المواجهين للبوابة الداخلية، فلا يربو ارتفاعها عن ثلاثة أو أربعة أقدام ولكنها ذات وجوه مخيفة ويابانية صميمة بعضها شوهدت أنوفهم بصورة بشعة ويحملون فيك من منعطف عيونهم والبعض الآخر تكاد تنطلق منه ضحكات مأكرة خبيثة، ولم أكن أجرو على الاقتراب منها بعد الغروب أبداً.

وبين الحين والآخر تدعونى أمى للجلوس بجانبها وهي تلقى بالكسرات للسماك قائلة: تعال يا شبوط وتعال يا روش. فتبعثر الكسرات فى البركة بينما تأتى أسماك الشبوط والروش سابحة من مخبئها فى تلك الحفرة العميقة. وأحياناً أخرى أجلس بجانبها على حافة الشرفة متكناً على سياج الدرابزين المنخفض وأقذف معها الكسرات للسماك، أو أجلس على حجرها شاعراً بدفع وطراوة فخذيها الممتلئين قليلاً وناعماً بالحنان وهي تضمنى الى صدرها.

واعتدنا فى شهور الصيف أن نتخذ من البركة مجلساً للعشاء ناعمين بطراوة الماء. وفى بعض الأوقات كنا نوصى أحد المطاعم أن يرسل لنا العشاء أو نستدعى طاهياً من متعهد الأطعمة فيحضر كل اللوازم ويعد لنا العشاء فى مطبخنا الرحيب.

وكان أبى يسير حتى يصل الى أسفل المياه المتساقطة من هاون الماء حيث يضع زجاجات البيرة لتبرد. وكانت أمى تجلس على حافة البركة مدلية ساقها فى الماء وكانت الساقان حينئذ فى أوج جمالهما. وكانت أمى امرأة ضئيلة الجسم ذات ساقين قصيرتين ممتلئتين يكسوهما بياض. فكانت تدليهما فى الماء فى سكون متمتعة ببرودة الماء تتسرب الى جسمها. وبعد أن شببت عن الطوق فيما بعد صادفتنى أبيات شعر صينية تقول:

وهي تغسل المحبرة فى الماء

جاء السمك ليبتلع الحبر

وكنت أسأل نفسي أثناء نشأتى الأولى: أليس يجدر بأسمك بركتنا من الشوط والروش أن تأتى لتلهو حول ساقى أمى الجميلتين بدلا من مجيئها للكسرات فقط؟

وأذكر أنه فى احدى أمسيات الصيف أثناء جلوسنا بجانب البركة لاحظت فى حسائى بعض الأوراق الزلقة فسألت أمى: ما هذا يا أماه؟ فأجابته هذه أوراق نينوناوا. فعدوت السؤال: ماذا؟ نينوناوا؟ فقالت مفسرة بصوتها الناعم الرقيق: انه نبات يستخرج من بركة ميزورو. فقال أبى ضاحكا: اذا أسميته نينوناوا فلن يفهم أحد فى هذه الأيام ما تقصديه. انهم الآن

يسمونه "جونساى". فردت أمى قائلة: ولكن ألا توحى كلمة نينوناوا بشئ زلق كما يبدو هذا تماماً؟ انه يسمى هكذا فى جميع أبيات الشعر القديمة. ثم استشهدت بأحد تلك الأبيات. ومنذ ذلك الحين أصبح هذا النبات يسمى "نينوناوا" فى بيتنا، حتى أن الخادومات والطهاة المترددين علينا كانوا أيضاً يطلقون عليه نفس الاسم.

وعند الساعة التاسعة كان يقال لى: أن موعد النوم. ثم تصطحبنى مربيتى الى الفراش. ولا أعرف الى أى ساعة كان يسهر والداى اللذان يأويان الى فراشهما فى الغرفة المتصلة بالشرفة بينما كنت أنام مع مربيتى فى غرفة صغيرة تسع ستة حصر وتقع الى الشمال منهما وتفصلنا عنهما طرقة. فكنت لا أخلد للنوم قائلاً فى دلى: أريد أن أنام مع أمى. ثم تأتى أمى وتقول لى: يا لك من طفل صغير. ثم تضمنى بين ذراعيها وتحملنى الى غرفة نومها. وكان الفراش معداً للنوم ولم يكن أبى قد أوى اليه بعد فكان غائباً فى المقصورة. وأمى لم ترتد بعد ملابس نومها، ثم ترقد بجانبى كما هى دون أن تحل حزامها، وتضمنى الى صدرها بحيث تستكن رأسى تحت ذقنها. وكان مصباح الحجرة مضاءاً ولكنى عندما دفنت وجهى فى فتحة عنق رداىها انتابنى احساس بالظلام يفرد أجنته حولى. وكانت تهب نحو منخري رائحة جميلة خفيفة من شعرها الذي أرسلته على هيئة كعكة. وكنت أهيى بغمى باحثاً عن حلمتيها وأطبق فمى عليهما وألثمهما بلسانى. وهى عادة تدعنى أفعل ذلك كما يروق لى دون أن تنبس بكلمة توبيخ.

وأظن أننى ظللت أرضع من ثدييها حتى غدوت طفلاً كبيراً، ربما لأن الناس لم تكن فى ذلك الوقت متزمتة فى فطام الرضاع. وعندما أعملت لسانى بأشد ما أملك لاعتقاً ولامساً تدفق من الثدي لبن جميل. بينما رفرف حول وجهى أريج امتزجت فيه رائحة شعرها ولبنها. وفى وسط الظلام كان ثدييها يظهران أمام عيني بلونهما الأبيض الغائم فى الظلمة. ثم تهمس لى بصوت خفيض: هيا نم، هيا نم. وبينما تهودنى رابطة على رأسى وممدة ظهري بدأت تغنى تهويدتها المعتادة:

هلم للنوم هلم للنوم

لا تبكى فانك طفل لطيف، هلم للنوم

ها هذه ماما تلاطفك

ها هذه ماما تحضنك

لا تبكى فانك طفل لطيف، هلم للنوم

كانت تعيد الغناء مرتين وثلاثة حتى أنام. فكنت أذهب فى سبات عميق بينما مازلت متشبهاً بثدييها وألثم حلمتيها. وكثيراً ما كان صوت طقطقات هاون الماء البعيد يتخلل أحلامى عابراً النافذة المغلقة. وكانت مربيتى أيضاً تعرف بعض التهويدات وتغنيها لى لكي تغرينى بالنوم، مثل تلك التهويدة:

لما سألت الوسادة

هل هو نائم؟

قالت الوسادة الأمينة: نعم نائم

أو تغنى لى التهويدة التالية:

رأيت فى الحلم أمس قطعة

تضع على رأسها قلنسوة

وتدق الجرس فى شرفة المعبد

وكنت عادةً لا أستسلم للنوم بسهولة حين تغنى لى مربيتى تهويداتها المختلفة، كذلك لم أكن أسمع صوت هاون الماء فى غرفتنا. فقد كان لصوت أمى وحده ايقاع مغرى يملأ عقلى بخيالات لطيفة ويجعلنى أستغرق فى النوم بسرعة.

ومع أنى الى هنا كنت أذكر "أمى" دون أن أحدد أمى الحقيقية أم زوجة أبى الا انى كنت أقصد أن أروى ذكرياتى عن أمى الحقيقية. وبالرغم من ذلك فانى أظن أن هذه الذكريات مفصلة جداً بالنسبة لطفل لم يتعد الثالثة أو الرابعة من عمره.

فعلى سبيل المثال هل رؤية أمى تدلى ساقها فى الماء أو سماعها تتحدث عن نينوناوا، هل هذه الأشياء ان كانت حقاً وقعت وأنا فى تلك السن من نشأتى الأولى يمكن أن تترك فى ذهنى أيما صورة أو انطباع؟ من الجائز أن الصورة المنطبعة فى ذهنى عن أمى الأولى اختلطت بصورة الأم الثانية مما يجعل ذاكرتى تخلط خطأ بين الاثنين.

وفى خريف أحد السنوات المبكرة من حياتى، وعلى وجه الضبط عندما بدأت شجرة الكستناء تسقط أوراقها أمام مدخل بيتنا، أصيبت أمى وهي حبلى فى أخ أو أخت لى بمرض تشنج النفاس وماتت على أثره فى الثالثة والعشرين. كنت حينذاك فى الخامسة أو السادسة من عمري، وبعد حوالي سنتين جاءت زوجة أبى الى بيتنا.

لا أستطيع أن أعيد الى ذهنى صورة واضحة عن ملامح وجه أمى الأولى. وعلى حد كلام مربيتى كانت أمى جميلة جداً. ولكن ما يمكننى تذكره هو صورة باهتة لوجهها الممتلئ المستدير. ونظراً لأنى كنت كثيراً ما أرفع نظرى صوبها وهي تحملنى بين ذراعيها فقد أمكننى رؤية منخرها بوضوح. كان ضوء المصباح يضيء على انفها الجميل اشراقاً وردية اللون، وكنت أراها من تلك الزاوية متسقة باتقان فائن ولا تقارن بأنف مربيتى أو أى أحد غيرها. ولكن أحاول أن أتذكر قسماات وجهها الأخرى مثل عينيها وفمها وحاجبيها فانى لا يمكننى تذكرها بالتدقيق وان كنت أعرف شكلها العام، وهنا أيضاً ربما كانت تضللى صورة أمى الثانية التى اختلطت بتلك الصورة.

وما انفك أبى بعد وفاة أمى يكرس نفسه لتلاوة الصلوات البوذية من أجلها كل صباح ومساء أمام مائدة الموتى فى بيتنا. وكنت غالباً أجلس بجانبه أصلى أيضاً. ومهما أحملق فى صورتها المعلقة على المذبح البوذى بجوار مائدة الموتى لم أكن أشعر شعوراً حقيقياً أن "هذه هى أمى المرأة التى رضعت من ثديها". كل ما استطعت أن أخمنه من تلك الصورة أن تسريحة شعرها كانت موضحة قديمة وجسمها أكثر امتلاءً مما كنت أتذكر. وكانت الصورة باهتة عموماً بحيث انها لم تستطع أن تعيد الى ذهنى الصورة التى كانت تبدو عليها أمى فعلاً. فسألت أبى:

أهذه حقاً صورة أمى يا أبى؟

وأجاب قائلاً: نعم بالطبع، ولقد أخذت لها تلك الصورة قبل أن أتزوج منها وهي فى السادسة أو السابعة عشر.

فقلت: ولكنها لا تشبهها فى شئ، فلماذا لا تستبدلها بصورة أحسن منها؟ أليس لدينا صور لها التقطت بعد زواجكما؟

فأجاب أبى قائلاً: لم تكن أمك تحب أن تلتقط لها صور، ولذلك فهذه هى الصورة الوحيدة التى استطعت أن أجدها لها بمفردها. وقد التقطت لها صورة أو صورتين بعد زواجنا ولكن المصور عالج الصور معالجة سيئة حتى تصورت أمك أنها تشوه وجهها. والآن تبين هذه الصورة أمك

وهي فتاة صغيرة فى فترة الشباب ولذلك قد تبدو مختلفة عما تتذكره أنت، ولكنها على أية حال تبين هيتها الحقيقية عند ذلك الوقت.

وعندما سمعت هذه الكلمات من أبى أحسست أن تلك الصورة رغم أنها تبين هينة أمى فعلاً إلا أنها لا تجعلنى أتذكر شكلها بصورة حية.

وكنْتُ أتذكر أمى وقلبى يمتلئ حسرةً وأنا أتكى على الدرايزين أشاهد أسماك الشبوط والروش وهي تسبح فى البركة. ولشد ما تتوق نفسى إليها وأنا أنصت الى صوت طقطقات هاون الماء. وخاصة بالليل عندما كنت أرقد فى الفراش بين ذراعى مربيتى كنت أشعر بشوق لا يمكن وصفه الى أمى التى رحلت عن هذا العالم. لماذا لا يعود ثانية عالم الأحلام الجميل الأبيض القاتم فى صدرها الدفى بين الرائحة الممتزجة بشعرها ولبنها؟ هل موت أمى يعنى أن ذلك العالم قد انتهى؟ لعمري الى أين أخذت أمى هذا العالم؟

وحاولت مربيتى أن تروح عن نفسى بغناء تهويداتها ولكنها كانت بذلك تزيد فقط من أحزاني. كنت أتقلب فى فراشى محمواً صائحاً:

لا أريدك أن تغنى لى، انى أريد أرى أمى.

كنت أقول ذلك باكياً وأنفض الأغطية عنى، وأخيراً كان يأتى الى أبى قائلاً:

يا تاداسو لا يجب أن تسبب لمربيتك كل هذه المتاعب، الآن كن ولداً مهذباً واذهب لتنام.

ولكنى كنت أبكى أكثر وأكثر، فيقول أبى بصوت غليظ:

ان أمك قد ماتت ولن يجدي البكاء شيئاً. وإنى أيضاً أريد أن أبكى عشرة أو عشرين مرة مثل بكائك ولكنى شجاع، فحاول أن تكون شجاعاً مثلى. ثم كانت مربيتى تتدخل قائلة: إذا وددت أن ترى أمك فلتصل أمام المحراب البوذى بكل عزمك، فان فعلت فسوف تأتى أمك اليك زائرة فى أحلامك قائلة: يا لك من ولد عاقل يا تاداسو، أما اذا بكيت فلن تأتى.

وأحياناً يئأس أبى من نحيبى وصراخى المتواصلين فيقول: حسناً، تعال لتنام معى. ويأخذنى لغرفته ويرقد محتضننى بين ذراعيه. ولكنى كنت أجد راحته الذكورية مختلفة اختلافاً كبيراً عن التعبير الذكى الذي كان ينبعث من أمى. فلم يكن ذلك عزاء لى فيها. وكنْتُ أفضل أن أنام مع مربيتى عن النوم معه قائلاً:

بابا، انى مشمئز، الأحسن أن أنام مع مربيتى.

فيقول: حسناً فاذهب ونم فى الغرفة الأخرى.

ولكن عندما أعود للفراش لأنام معها كانت تقول:

حتى اذا كان أبوك يشعرك بالاشمئزاز فما الذي يجعلك تقول له هذا الشئ الرهيب؟

وكانت تقول دائماً أننى أشبه أبى تماماً ولست أشبه أمى. وهذا أيضاً كان يضايقنى.

كان من عادة أبى أن يقضى ساعة كل صباح ومساء فى ترتيل السوترا البوذية بصوت مرتفع أمام مائدة الموتى، وكنْتُ بمجرد أن أشعر أنه على وشك التوقف أتسلل للمذبح البوذى وأجلس بجانبه بقية الوقت. ولكنه كان أحياناً يسحبنى من يدي الى هناك قائلاً: تعال لتصل من أجل أمك. فكنت أضطر أن أجلس ساكناً بجانبه من بداية الصلاة حتى نهايتها.

وفى ربيع العام التالى عندما كنت فى السادسة من عمري التحقت بالمدرسة الابتدائية. ومنذ ذلك الوقت لم أعد أسبب ازعاجاً خلال الليل الا فى النادر، ولكن حينى الى أمى كان يزداد أكثر وأكثر. حتى والدي الذي كان يكره استقبال الضيوف ولا يهتم بمصادقة أحد أثناء حياة أمى بدأ بعد وفاتها شاعراً بالوحدة وبدأ يقضى بعض وقته خارج المنزل من آن الى آخر

للتريض. وفي أيام الأحاد كان كثيراً ما يصطحبني مع مربيتي للغذاء في مطعم يطل على النهر في يامابانا أو في رحلة الى ساجا مستقلين قطار أراشيياما. وفي أحد الأيام قال لي: لما كانت أمك على قيد الحياة اعتدنا كثيراً أن نتناول غذائنا بالخارج في يامابانا، فهل تتذكر ذلك يا تاداسو؟

"أتذكر مرة واحدة فقط، ألم نسمع حينذاك نقيق بعض الضفادع في النهر خلفنا؟"
"هذا صحيح، أتذكر أنك سمعت والدتك تغنينا أغنية في إحدى الأمسيات هناك تقول

أحمل أعشاب الخيزران فرحاً
وأشرب شوربة بطاطا اليا

"لا أعتقد اني أتذكر ذلك."

ثم صاح أبي وكان خطر بباله فجأة: هب يا تاداسو أنه توجد امرأة شبه أمك تماماً وأنها مستعدة أن تصبح أمّاً لك، فماذا يكون شعورك نحوها؟

"وهل تعتقد أنه يوجد مثل هذه المرأة حقاً؟ هل تعرف أحداً يا أبي؟"

ولما سألته ذلك في دهشة أجاب على الفور في ارتباك كأنه يريد أن ينفي ما قاله: لا فقط قلت هب.

لست متأكداً على وجه الضبط كم كان يبلغ عمري عندما دار هذا الحديث مع أبي وليس من سبيل أمامي لأعرف هل كانت تدور بخلد في الخفاء مثل هذه الانسانة أم أن ذلك مجرد ملاحظة قالها بالمصادفة. ولكن في أحد أيام الربيع عندما كنت في الصف الثاني الدراسي لما كانت أزهار الطرليوس عند فوهة الشلال في أوج تفتحها، دهشت لدى عودتي من المدرسة لسماع صوت الكوتو من الحجرة الداخلية. وسألت نفسي "ترى من يكون العازف؟". لقد كانت أمي عازفة بارعة تتبع أسلوب مدرسة "ايكوتا". وكثيراً ما رأيت أبي جالساً بجانبها في الشرفة يتابع باهتمام عزفها على الكوتو التي يبلغ طولها ستة أقدام والمحلاة برسوم شجرة الصنوبر المشغولة بطلاء الذهب. وبعد وفاتها لفت آلة الكوتو المحبوبة لديها في ثوب من القماش الزيتي نقش عليه شعار أسرتنا أزهار البوليفنية ثم وضعت في صندوق طلي أسود وحفظت بعد ذلك بعيداً في المخزن دون أن يمسه أحد منذ ذلك الحين، فهل ياترى هذه آلتها؟ كنت أسأل نفسي في عجب بينما دخلت المدخل الجانبي. وهنا ظهرت مربيتي وهمست وهي تلصق فمها بطرف أذني:

تاداسو، ابق هادئاً واسترق النظر من الحجرة الأخرى فلدينا اليوم ضيفة جميلة. وعندما ذهبت من خلال الغرفة ذات الثمان حصر الى الناحية الأخرى وفتحت الباب المنزلق قليلاً ونظرت من هناك، لمحني أبي على الفور وأشار لي بيده لكي أذهب هناك. كانت الضيفة منهمكة في العزف على الكوتو وحتى بعد أن جلست الى جانبها واصلت عزفها دون أن تلتفت ناحيتي. كانت تجلس في الموضع الذي اعتادت أمي الجلوس فيه متخذة نفس الوضعة وقد وضعت آلتها في نفس الزاوية، وكانت وهي تضغط على الأوتار تبسط يدها اليسرى كما كانت تفعل أمي. ولكن آلة الكوتو كانت مختلفة عن آلة أمي فكانت بسيطة خالية من أي زخرفة. ولكن وضع أبي وموقفه وهو جالس هناك يتابعها باهتمام شديد كان مماثلاً تماماً لما كان يحدث أثناء حياة أمي. ولم تلتفت الضيفة وتبتسم لي الا بعد أن فرغت من العزف وخلعت ريشات أصابعها العاجية. وسألتني مبتسمة:

هل أنت تاداسو؟ انك تشبه أباك تماماً.

ثم قال أبي وهو يربت على رأسي: فلتنحن تحية للضيفة.

ثم سألتني الضيفة: هل عدت توأ من المدرسة؟

وبعد ذلك وضعت الريشات في أصابعها وبدأت تعزف مرة أخرى. وكانت تبدو عليها الحيرة حتى أمام طفل صغير مثلي. وفي أثناء ذلك جلست في خشوع بجوار أبي أرقب كل حركة من حركاتها ولا أكاد أجرو على التنفس. وبعد أن فرغت من العزف تبادلت الحديث مع أبي دون أن تحاول أن تلقى على كلمات الاطراء المختلفة. كل ما فعلته هو الابتسام عندما التقت عيوننا. كانت تتكلم مع أبي في رزانة واسترخاء وتشيع حولها جواً من الهدوء. وبعد قليل جاءت عربة الجنركشة لتصحبها ورحلت قبل حلول الغسق. ولكنها تركت لدينا آلة الكوتو التي وضعت في فجوة جدار الغرفة ذات الثمانية حصر. وأيقنت أن أبي سيسألني: ما رأيك في هذه السيدة؟ ألا تعتقد أنها تشبه أمك؟

ولكنه لم يقل شيئاً وأنا بدوري لم أحاول أن أعرف كيف تم له التعرف بها. وكنت متردداً بعض الشيء في إثارة هذا الموضوع. والحقيقة أنني لو كنت سألت مثل هذا السؤال لما وجدت اجابة. وعلى الأقل لم أشعر من الوهلة الأولى بأى انطباع بأنها تجسيد لأمي. ورغم ذلك فهي تشبهها في وجهها الناعم المستدير وجسمها الضئيل وطريقة كلامها الهادئة المتمهلة، وبخاصة في تحفظها المذهب وابتعادها تماماً عن اطرائي اطراء زائفاً في لقائنا لأول مرة. وهذا بالاضافة الى ما فيها من جاذبية وسحر. وكل ذلك كان يعجبني فيها. وأعتقد أنها تشبه أمي في كل هذه الأشياء.

وسألت مربيتي: من هذه السيدة؟

فقلت: في الحقيقة لا أعرف.

وهكذا لم تصارحني مربيتي بشئ عندما سألتها سراً، ربما لأن أبي قد أمرها ألا تبوح بشئ أو لأنها لم تكن تعلم حقاً.

" وهل هذه هي المرة الأولى التي تزورنا؟ "

" لا فإلقد حضرت هنا مرتين قبل ذلك، فتلك هي المرة الثالثة. ولكنها المرة الأولى التي عزفت فيها على الكوتو. "

ثم شاهدت هذه السيدة في بيتنا مرة أخرى في الصيف عند ذلك الفصل الذي بدأ فيه تغريد الوقواق يتراعى الى سمعي. وفي تلك المرة كانت تبدو أكثر تحراً من الكلفة، وبعد أن فرغت من العزف جلست لترمي الكسرات للسّمك معي وأبي. ومرة أخرى تركت لدينا الكوتو. وربما كانت تتردد على بيتنا أكثر مما كنت أعرف.

وفي ذات يوم من شهر مارس عندما كنت في الثامنة من عمري استدعاني أبي الى الشرفة ليحدثني بأمر. وأعتقد أن ذلك كان في حوالي الساعة الثامنة مساء حيث لم يكن حولنا أحد. وبدأ أبي كلامه في لهجة جادة على غير عادته قائلاً في تردد: انى لا أعرف ما هو احساسك نحو السيدة التي تأتى لزيارتنا ولكنى أرغب أن أتزوجها من أجلى ومن أجلك أيضاً. انك ياتاداسو ستصبح هذا العام في السنة الدراسية الثالثة ولذلك أحب أن تفهمنى جيداً. كما تعرف فانى أحببت أمك حباً عظيماً ولو كانت على قيد الحياة اليوم لما كنت أريد إنسانة غيرها. ولقد كان موتها صدمة لى جعلتني لا أعرف ماذا أفعل. ولكن بعد ذلك تعرفت مصادفة بهذه السيدة. وانك تقول أنه لا يمكنك أن تتذكر وجه أمك بوضوح ولكنك سرعان ما تجد أن هذه السيدة تشبه أمك من كل النواحي. طبعاً لا يوجد انسانان متشابهان كصورة طبق الأصل إلا اذا كان توأمين. ولذلك فانى أقصد تعبيرات وجهها وطريقة كلامها وحركاتها وشخصيتها الطبية المتعمقة المتمهلة. هذا هو ما يجعلنى أقول أنها تشبه أمك. ولولا انى تعرفت بتلك الإنسانية لما شرعت في الزواج مرة أخرى. إن وجود إنسانة لها مثل هذه الصفات هو ما جعلنى أفكر في الزواج. وربما كان التقائى بها بفضل عناية والدتك من أجلك ومن أجلى أيضاً.

ولو حضرت وعاشت معنا لكانت عوناً كبيراً لك بينما تشب عن الطوق. والآن بعد أن انقضت الذكرى السنوية الثانية لوفاة والدتك أرى الوقت مناسباً لزواجي منها. ما رأيك يا تاداسو؟ إنك تفهم ما كلمتك فيه، أليس كذلك؟

وكنت أوافق أبي حتى قبل أن يفرغ من كلامه، وكان لدى فضول شديد، ولما رأى وجهي يملؤه الاشرار أضاف قائلاً: هناك شيء آخر أريدك أن تتذكره. تخيل أن أمك ابتعدت عن البيت فترة ثم عادت لتوها، ودون حتى أن أقول هذا الكلام كنت ستنظر للأمور مثل هذه النظرة بنفسك. إن أمك الحقيقية وأمك الجديدة ستصيران أمّاً واحدة دون تمييز بينهما. كانت أمك الأولى تدعى "تشيно"، وأمك الجديدة اسمها "تشيно" أيضاً. وسوف تتصرف أمك الجديدة في كل شيء تقوله وتفعله بنفس طريقة أمك الحقيقية.

بعد ذلك لم يعد أبي يصطحبني خلال صلواته أمام مائدة الموتى في الصباح والمساء. كما بدأ يقل الوقت الذي يقضيه في تلاوة الصلوات أمام مائدة الموتى تدريجياً. ثم تمت مراسم الزواج في إحدى امسيات إبريل في الغرفة المتصلة بالشرفة، وربما أقيم بعد ذلك حفل استقبال في أحد المطاعم ولكني لا أتذكر ذلك. أما مراسم الزواج نفسها فقد تمت في هدوء شديد واقتصرت على الأقارب الحميمين فقط في كلنا العائلتين. ومنذ ذلك اليوم أصبح أبي ينادي عروسه باسم "تشيно" كما قيل لي أن أدعوها باسم (ماما). وأدهشني أن الكلمة قد خرجت من بين شفتي في يسر غريب.

اعتدت خلال السنتين أو الثلاثة الأخيرة أن أنام في الغرفة المجاورة لغرفة أبي ولكن منذ الليلة التي وصلت فيها أمي الجديدة بيتنا عدت مرة أخرى أشارك مربيتي حجرتها الصغيرة عبر الطريقة التي تفصلنا عنهما. وكان أبي يبدو سعيداً سعادة حقيقية، وبدأ يعيش حياته العائلية الهادئة التي كان يتمتع بها مع أمي. حتى أن أمي الجديدة استمالت إلي صفها مربيتي والخادمتين الأخريتين اللاتي عشن معنا سنوات طويلة وكان من الممكن أن ينهمن في الأشاعات. ربما لأن أمي الجديدة طيبة القلب وراشحة بالمحبة والدفع بفطرتها. على أية حال فقد خدمتها بنفس الاخلاص والتفاني كما خدمت أمي من قبلها. وعادت أسرنا تسير على وتيرتها القديمة. وعاد أبي ينصت باهتمام إلى أمي وهي تعزف على الكوتو كما اعتاد في أثناء حياة أمي الحقيقية. وكان دائماً يأمر باحضار الكوتو المحلي بطلاء الذهب، وكنا في الصيف نتناول ثلاثتنا العشاء بجانب البركة. وكان أبي يأخذ البيرة ليبردها أسفل الفوهة التي تتساقط منها مياه هاون الماء. وكانت أمي تدلي ساقها في البركة. ولما نظرت لساقها في الماء تذكرت ساق أمي الحقيقية. وأحسست كأنهما نفس الساقين، أو بعبارة أدق كلما ألقيت نظرة على ساق أمي الجديدة تذكرت أن ساق أمي الحقيقية اللتين تضاءلت ذكراهما منذ فترة طويلة كان لهما هذا الشكل الجميل. كما كانت أمي الجديدة تدعو النبات الذي نتناوله في الحساء "نينوناوا" وأخبرتني كيف أنه يستخرج من بركة "ميزورو". وفي ذات يوم أبدت لي ملاحظة قائلة:

يهيأ لي أنك سوف تسمع في المدرسة في هذه الأيام عن المقتطفات الأدبية المختارة في البلاط الامبراطوري التي تسمى "كوكينشو"، وهناك بيت من الشعر في طلائع تلك المقتطفات تقول كلماته كما يلي:

كما في أعشاب نينوناوا والتي تنمو في قاع البركة المختبئة
فانك لم تنم معي ولكن يطلق عليك اسم "نام" فدعني أتى إليك

واستشهدت بالأبيات السابقة للشاعر "مبيونو تاداميني". وفيها تورية وفي هذه الأبيات تورية لكلمة "نينوناوا".

وأحب أن أكرر ما قلته من قبل وهو أنني يساورني شك في أن حكاية ساقى أمى أو نينونوا أو غيرها من الأحداث قد بدأت أشعر بها أو أسمعها في أثناء حياة أمى الحقيقية وأن ما حدث بعد ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تكرار لها. وفي أحيان أخرى أظن أن هذه هي المرة الأولى التى تحدث فيها. ولا شك أن أبى قد أوحى إلى أمى الجديدة بطريقة سلوكها، وكان يحاول أن يجعلنى غير قادراً على التمييز بين ما قالته أو فعلته الأمرأتان حتى تصيران شيئاً واحداً فى وجدانى.

وفى احدى الأمسيات، وأحسبها فى ذلك الخريف، دخلت أمى حجرتى وأنا على وشك الذهاب للفرش مع مربيتى وسألتنى قائلة:

أتذكر يا تاداسو كيف اعتادت أمك أن ترعاك بحنان حتى بلغت الخامسة من عمرك؟
فقلت: أجل.

وهل تتذكر كيف كانت دائماً تغنى لك التهويدات؟

"نعم أتذكر ذلك."

ألا زلت تريد أمك أن تفعل لك هذه الأشياء؟

نعم، أعتقد ذلك."

أجبت والدم يشيع فى وجهي الذي تورد خجلاً وقد بدأ قلبى يخفق بقوة.

حسناً، فتعال الليلة ونم معى."

وأخذت يدي واصطحبتنى الى الغرفة المتصلة بالشرفة. كان الفراش معداً للنوم ولم يأوى إليه أبى بعد. وكانت أمى نفسها ترتدى ملابسها كاملة بما فيها حزامها المعتاد. وكان الضوء يتلألأ فى سقف الحجرة بينما يترامى إلى سمعى صوت طقطقات منبعثة من هاون الماء. كان كل شئ كما اعتدته فى الماضى. ثم انسلت أمى الى الفراش أولاً سائدة رأسها على الوسادة الخشبية التى تتخذ شكل قاع السفينة وكان شعرها مرسلأ فى كعكة. ثم رفعت الأغطية لكي أزحف فى الفراش لاحقاً بها. وكانت أمى دونى طولاً بحيث لا يمكننى بسهولة أن أدفن نفسي أسفل ذقنها، ولكن وجودى معها وجهاً لوجه جعلنى أشعر بالارتباك وأتقلص تحت الأغطية بقدر استطاعتى، وعندما فعلت ذلك كان خط عنق الكيمونو الذي ترتديه يحاذى أنفى مباشرة.

"أتريد بعض اللبن يا تاداسو؟"

سمعتها تهمس بهذه الكلمات بصوت خفيض بينما أحنيت رأسها أسفل قليلاً لكي ترانى وكان شعرها البارد يمس جبتهى برفق. وقالت:

لا بد أن الوحشة كانت تتملك حيث لم يكن ينام معك غير المربية طوال تلك الفترة، اذا كنت ترغب فى النوم مع ماما فلماذا لم تقل ذلك من البداية؟ هل كنت تشعر بالحياء من ذلك؟

فأومأت برأسى علامة الموافقة. فقالت:

يا لك من ولد غريب. الآن أسرع وأنظر هل يمكنك أن تجد لبناً.

وفتحت فتحة رقبة الكيمونو وحشدت وجهي بين ثدييها بينما لعبت أناملى فى حلمتيها. وكانت أشعة ضوء المصباح تتلألأ على حافة شرائف السرير لأنها كانت لا تزال ترنو لأسفل نحوي. وأطبقت فمى على حلمة ثم الأخرى ومضيت أمص واستعمل لسانى بشراسة لكي يتدفق اللبن. ولكن على ما بذلت من محاولات لم يسئل شئ وقالت: هذا يدغدغنى.

فقلت لها: لا أستطيع أن أحصل على قطرة واحدة، ربما نسيت الطريقة.

قالت: معذرة، تذرع بالصبر فعما قريب سيصير لدى رضيع وسيكون لدى لك الكثير من اللبن. ومع ذلك لم أدع ثدييها وواصلت مصهما ومع أنى كنت أعلم أنه لا جدوى من هذه المحاولات إلا اننى كنت متمتعاً باحساسى بهذين البرعمين المكتنزين الصغيرين اللذين يزينان طرفى ثدييها الناعمين الممتلئين وهما يتقلبان فى فمى. ثم سألتنى قائلة: معذرة، مع أنك تحاول بأقصى جهدك، أتريد الاستمرار فى المص رغم عدم نزول لبن؟ وأومات برأسى وظللت أمص.

ومرة أخرى تداعت الخواطر إلى ذاكرتى بصورة غريبة وشعرت بأنى أنجرف بين رائحة ممتزجة من زيت الشعر واللبن، تلك الرائحة التى كانت ترفرف فى صدر أمى منذ سنوات بعيدة انصرفت. وعلى نحو غير متوقع عاد إلى عالم الأحلام الدفئ الأبيض المشوب بظلمة، وكنت ظننته تلاشى للأبد. بعد ذلك بدأت أمى تغنى التهويدة القديمة بنفس الايقاع الذى أعرفه معرفة اليقين.

هلم للنوم، هلم للنوم

لا تبكى فإنك ولد مهذب، هلم للنوم

ولكن رغم غنائها هيهات أن أنام فى تلك الليلة لما كنت أشعره من اشارة وظللت أمص حلمتيها فى نهم.

وانصرفت ستة أشهر ولم أعد أستطيع التمييز بوضوح بين أمى الحقيقية وأمى الحالية رغم أنها لا تزال كامنة فى أعماقى ولم أنساها. فما حاولت أن أستدعى لمخيلتى وجه أمى الحقيقية الا ولاحت لى أمى الثانية، وما حاولت أن أتذكر صوتها الا وتردد فى أذنى صوت أمى الثانية. وشيئاً فشيئاً امتزجت الصورتان فى مخيلتى بحيث أصبح من الصعب أن أصدق أنه كانت لى أم غيرها. وهكذا تم كل شئ كما يأمل أبى.

وعندما بلغت سن الثانية أو الثالثة عشر بدأت أنام ليلاً بمفردى. ولكنى حتى حينئذ كنت أتوق الى أن تحضننى أمى فى صدرها. كنت أستعطفها قائلاً: ماما دعينى أنام معك.

فكانت تفتح الكيمونو وتجعلنى أرضع من الكيمونو وتجعلنى أرضع من ثدييها الخاليين من اللبن وهي تغنى تهويداتها، ثم يغلبنى سبات عميق لأجد نفسى عندما أستيقظ فى اليوم التالى قد نقلت، دون أن أدري متى، الى حجرتى الصغيرة لأنام فيها وحدي. وكلما قلت "ماما دعينى أنام معك" لبت رغبتي بسرور دون أن يعترض أبى.

توالت الأيام دون أن أعرف أين ولدت أمى الثانية أو فى أى بيئة نشأت أو كيف تعرفت بأبى وتزوجت منه، فمثل هذه الموضوعات لم تكن لتثار أثناء حضورى قط. كنت أعلم يقيناً أن سجلات المدينة سوف تزودنى بمفتاح لهذا اللغز، ولكنى فضلت الامتنال لأوامر أبى الذى قال لى: يجب أن تعتبرها أمك الحقيقية ولا تتخيل أبداً أنها زوجة أبىك. كذلك كانت تراودنى بعض المخاوف جعلتنى متهيئاً مما يمكن أن أكتشفه. الا أننى عندما كنت على وشك دخول المدرسة الثانوية اضطررت لاستخراج شهادة من سجلات المدينة، حينئذ عرفت أن اسم أمى الثانية هو "تسونيكو" وليس "تشيно".

وفى العام التالى أنهت مربيتى "أوكانى" التى كانت عندئذ فى السابعة والخمسين خدمتها الطويلة فى بيتنا وعادت الى بلدتها "ناجاهاما". وفى أحد الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر ذهبت برفقتها لزيارة ضريح "شيموجامو" أثناء استعدادها للرحيل من بيتنا، وهناك قدمت تبرعاً للضريح كما صلت صلوات سريعة أمام المذبح الرئيسى ثم قالت بصوت يملؤه التأثر:

انى أفارق هذا الضريح ولا أدري متى سأراه مرة أخرى.
وبعد ذلك اقترحت قائلة: ما رأيك فى التمشى قليلاً؟
فاقترحت على أن نتمشى فى غابة الضريح تجاه جسر "أونى". وبينما كنا نسير جنباً الى جنب التفتت ناحيتى قائلة:
ألا تدري كل شئ عن هذا الأمر يا تاداسو؟
فسألتها فى دهشة: أى أمر تقصدين؟
"إذا لم تكن سمعت فلن أضيف كلمة أخرى."
"عما ماذا تتحدثين؟"
فقالت مترددة: "ترى هل يصح أن أخبرك"
ثم قالت وهي ما زالت تراوغ: هل تعرف يا تاداسو الكثير عن زوجة أبيك؟
فأجبت: لا، انى أعرف أن إسمها الحقيقى تسونيكو.
"وكيف اكتشفت ذلك؟"
"فى العام الماضى اضطررت أن أستخرج شهادة من سجلات المدينة."
"أحقاً لا تعرف غير هذا؟"
"أجل، هذا كل ما أعرفه. فأبى أمرنى ألا أكون فضولياً نحوها، كما أنك لم تفضي لى بشئ، ولهذا قررت ألا أسأل عن شئ."
"لم أكن أريد أن أفيض بما فى نفسى طالما كنت أعمل فى بيتكم، ولكنى راجعة الى بلدتى ولا أدري متى سأراك ثانية، ولهذا رغم كل شئ أعتقد أنه ينبغى أن أخبرك. ولكن ينبغى أن يكون ما أقوله سراً لا تبوح به لوالدك."
"لا تبالى بأن تقصى على ذلك الأمر، أعتقد انه يجب أن أمتثل لأوامر أبى."
قلت ذلك دون أن أعنيه حقاً. ولكنها ألحت قائلة:
على أية حال فانك سوف تكتشف الأمر ان عاجلاً أو آجلاً، فهو أمر خليك بأن تعرفه، ولم يكن فى وسعى الا أن أشعر بالافتتان بقصتها الطويلة الملتوية الذي انطلقت تقصها على رويداً رويداً أثناء سيرنا فى طريق الضريح.
"لقد سمعت هذا الأمر عن طريق غير مباشر ولذلك فلست واثقة تماماً من كلامى."
هكذا بدأت كلامها وراحت تقص على وصفها كاملاً لماضى زوجة أبى. وعلى حد ما سمعته فإنها فى الظاهر ولدت لأسرة فى "كيوتو" تمتلك مكتبة كبيرة فى حي "نيجو" تخصصت فى بيع أوراق الزخرفة وفرشات الكتابة. ولكن وهي فى التاسعة من عمرها أفلتت أسرتها ولا يوجد أثر الآن لمكتبتهم. ولما بلغت الحادية عشر أودعها والداها تحت الدين لدى أحد بيوت اللهو فى "جيون". وبدأت تتمرن على حرفة الجيشا.
وقضت سنين عمرها فيما بين الاثنى والخامسة عشر فى ذلك البيت مشتركة فى الحفلات كراقصة. وربما أمكن اكتشاف اسمها الحرفى آنذاك واسم بيت الجيشا إلى آخر تلك الأمور ولكن مربيته لم تكن تعلم شيئاً عن ذلك. بعدئذ وهي فى الخامسة عشر تخلصت من الدين حيث سدده رجل كان ابناً لتاجر قطن بالجملة. وانتقلت مع هذا الرجل الى بيت أسرته. وتختلف الأقاويل حول ذلك فيرى البعض أنه تزوجها قانوناً بينما يقول البعض الآخر أن اسمها لم

يسجل كزوجة فى السجلات الرسمية. على أية حال فكانت زوجة أو تعامل معاملة الزوجات وعاشت ما يقرب من ثلاث سنوات فى كنف زوجها حياة مستقرة كسيدة بيت ثرى، ولكنها سرعان ما طلقت لسبب ما وهي فى الثامنة عشر، ويرى البعض أنها طردت من مسكن زوجها تحت ضغوط وقعت عليه من عائلته بينما يقول آخرون أن زوجها كان رجلاً ذا أهواء جامعة وسرعان ما سئمها. ولا ريب فى أنها تقاضت مبلغاً كبيراً من المال حينذاك. وعادت الى بيت والديها الصغير الذي أصبح مغلقاً عليهما وحولت حجرة الطابق العلوي منه إلى استديو وعاشت تكسب قوتها من تدريس تنسيق الزهور وطقوس حفلات الشاي اليابانية للصبيات من جاراتها. ومن الواضح أن أبى تعرف عليها خلال تلك الأيام، ولكن لا يكاد يعلم أحد فى أى مناسبة التقى أو فى أى مكان كانا يلتقيان قبل أن تصر زوجته وتأتى لتعيش معنا فى عش مالك الحزين.

عندما تزوج أبى للمرة الثانية كانت قد مرت سنتان ونصف على وفاة أمى. وكانت زوجته الجديدة تشبه زوجته الأولى كثيراً ولكن رغم ذلك فبسبب حبه الشديد لزوجته الأولى لا يتصور أنه وقع فى حب الثانية قبل مرور سنة على الوفاة، وربما لم يعقد عزمه على الزواج منها الا قبل اتمام الزواج بعام. وكانت زوجته الجديدة فى العشرين عندما تزوج أبى منها أما هو فقد كان فى الثالثة والثلاثين أى يكبرها بثلاثة عشر عاماً، بينما كنت أصغرها بنفس السنوات تقريباً حيث كنت فى الثامنة حينئذ.

لقد أثار اكتشافى البيئة السابقة التى نشأت فيها زوجة أبى فضولى الشديد الى جانب الكثير من المشاعر الأخرى. لم أكن أتخيل أبداً أن زوجة أبى راقصة محترفة فى "جيون". وبطبيعة الحال كانت تختلف عن الفتاة العادية من هذا النوع فهى ربيبة عائلية محترمة كما أنها تركت الحياة الخلية بعد سنوات قليلة لتبدأ حياة زوجية مع زوج ينتمى لأسرة موسرة. ويبدو أن تلك الحقبة قد صقلتتها فأصبحت تجيد الكثير من الفنون الاجتماعية النسوية الرفيعة. ولا يسعنى الا الاعجاب بها لأنها استطاعت أن تحتفظ بسحرها وحسن ذوقها وسماحة نفسها رغم أنها كانت فى يوم من الأيام راقصة فى جيون. ولكن ما شأن هذا الصفاء الواضح فى طريقة كلامها الرقيقة التى تنم عن الأصول المعروفة لدى طبقة التجار القديمة فى كيوتو؟ فبالرغم من أنها لم تقض فى "جيون" إلا سنتين أو ثلاثة فقط إلا أنه من المتوقع أن نستشف أثراً لذلك فى لهجتها. ترى هل كان زوجها ووالديه يصران على تأديب لهجتها؟ أعتقد أنه ليس بمستغرب أن تخلص امرأة كهذه لب أبى الذى كان يشعر بالاكئاب والوحدة. وكان طبيعياً أن يؤمن بأن امرأة مثلها يمكن أن تشبه زوجته السابقة فى خلالها اللطيفة وأن تساعدنى على نسيان الأسى الذى سببه لى فقدانى لأمى. وبدأت أدرك كيف كان متعلقاً بها ليس فقط من أجله بل من أجلى أيضاً. وحتى اذا كانت زوجته الثانية شاركتها الرغبة فى اعطائى انطباع بأن أمى الحقيقية وأمى الثانية شيئاً واحداً فإن ما بذله من جهود رائعة هو وحده الذى مكنه من أن يعيد صياغة زوجته فى صورة أمى الحقيقية. وأدركت أن الحب السخي الذى يكنه لى ولزوجته الجديدة إنما يجعل حبه لزوجته الأولى أكثر قوة وعنفاً. وعلى هذا النحو كان من نتيجة افشاء أسرار ماضى زوجة أبى قبل الزواج منه أن ازداد احساسى بالعرفان بالجميل نحو أبى واحترامى لزوجته. وبعد رحيل مربيتى ألحقنا بخدمتنا امرأة أخرى حتى بلغ عدد الخاديمات أربعة. وفى يناير من العام التالى علمت أن أمى حبلى وذلك بعد مرور احدى عشر عام على زواجها من أبى.

وبما أنها لم تكن رزقت بأطفال من قبل حتى فى زواجها السابق فقد أذهلها وكذلك أبى وقوع هذا الأمر بعد كل هذه السنوات الطويلة. وكانت تقول دائماً:

انى أخجل من انتفاخ بطنى هكذا بعد أن بلغت هذه السن.

أو تقول: ألا يقال أن المرأة التى تعدت الثلاثين تكون ولادتها أول مرة عسيرة؟

كان أبى وأمى يكرسان كل حبهما الأبوى نحوي وربما ساورهما القلق من أن هذا الحادث سيضايقتى. وإذا صح ذلك فلم يكن هذا الا سوء فهم من جانبهما، فلا يمكننى أن أصف مقدار السعادة التى كانت تغمرنى عندما أفكر فى أنه سوف يصير لى أخ أو أخت بعد عشرين عام قضيتها ابناً وحيداً. وأظن أن هذا الأمر كان يوقع الكآبة فى نفس أبى بين الحين والآخر لأن الذكرى المشنومة أى وفاة أمى أثناء الحمل كانت لا تزال ناشبة فى مخيلته. ولكن الشئ الغريب الذى حيرنى هو عدم رغبتهم فى خوض الحديث فى هذا الأمر والكآبة الغريبة التى كانت تبدو على وجه كلاهما إذا أشار أحد الى هذا الموضوع. وكانت أمى تقول فى شبه مزاح: حيث أن لدى تاداسو فإنى لا أريد أولاداً آخرين. وان امرأة فى مثل سنى لهى كبيرة على الوضع.

ومن خلال معايشتى ومعرفتى بها لا أعتقد أنها تحاول خلال كلماتها هذه أن تخفى ارتباكها من الحمل فقط. فكنت أعارضها قائلاً:

أماه ماذا تقولين؟ لا يجدر بك أن تقولى مثل هذا الكلام السخيف.

ولكن منظر أبى كان يوحى باتفاقه معها فى رأى. وقال الطبيب الذى فحصها أن قلبها ضعيف ولكن ليس إلى حد يثير مخاوفنا لأن بنيان جسمها قوى بشكل عام. ولما حل مايو من ذلك العام وضعت مولوداً ذكراً، وتم الوضع فى منزلنا حيث أخلت لها حجرتى، كان المولود ينمو بصورة حسنة وبعد ذلك أسماه أبى "تاكيشى". ولكن فى ذات يوم لدى عودتى من المدرسة، وأظن بعد أسبوعين من ذلك، أذهلنى عدم وجود تاكيشى بالمنزل، فسألت أبى: أين تاكيشى يا أبى؟

فأجابنى: لقد أرسلناه إلى من يتبناه فى "شيزووتشينو" وأعتقد أنه سيجئ يوم تفهم فيه هذا الأمر ولكن فى الوقت الحالى أرجو ألا تسأل الكثير. ان هذه لم تكن إرادتى وحدي فمنذ أن توقعنا الوليد القادم تشاورت مع أمك فى الأمر كل ليلة. حتى ان تلك كانت إرادتها أكثر من كونها إرادتى. ربما كان لا يجدر بنا أن نمضي فى الأمر دون أن نخبرك ولكنى خشيت أن يكون الحديث معك بهذا الشأن يضر أكثر مما ينفع.

ونظرت إلى أبى للحظة غير مصداقاً بينما ظهر أن أمى التى غادرت الفراش أمس فقط تتعمد أن توارى نفسها فى مكان ما لنكون منفردين. فقلت لأبى متسانلاً: وأين أمى؟ فأجاب وكأنه لم يكن يعلم: أظن أنها خرجت للحديقة.

وفى الحال خرجت أبحث عنها فوجدتها واقفة فى منتصف الجسر تصفق بيديها منادية السمك وتبعثر له الكسرات. وعندما لمحتنى ابتعدت إلى الناحية المقابلة من البركة وجلست على اسطوانة من الخزف الصينى بجانب أحد تماثيل الرهبان الحجرية المشنومة، وأومات إلى لى اذهب وأجلس على الاسطوانة المقابلة لها.

" لقد سمعت بالأمر من والدي الآن، بالله عليك ما معنى هذا؟"

فأقلت وقد بدت على وجهها الناعم المستدير ابتسامة غامزة: هل كان ذلك مفاجأة لك يا تاداسو؟

وكانت عيناها تعبر عن هدوء لا يدل على أنها أم سيماء تحاول أن تسيطر على مشاعر الأسى لانتزاع وليدها المحبوب الذى لا يعوض.

وأجبت: نعم بالطبع.

فأقلت وهي تحتفظ بنفس الهدوء: ولكن ألم أقل دائماً إننى لا احتاج ابناً غيرك؟

لقد فكرت مع أببك فى الأمر ورأينا أن هذا هو أسلم شئ، ودعنا نتحدث فى هذا الأمر فيما بعد.

وفى تلك الليلة استعدت غرفتى التى أخليناها لولادة أمى. وكنت كلما فكرت فى ذلك الأمر ازدادت حيرتى. ولم أستطع النوم حتى قرب الفجر. وأود أن أشير باختصار الى "شيزووتشينو" المكان الذى ورد فى حديث أبى.

ان "شيزووتشينو" هو الاسم الحديث لمنطقة "ايتشيهارانو" المشهورة بحكاية رائيكو و "هاكا ما دارى ساسوكى" و "كيرومارو". وحتى الآن ما زالت إحدى قرى تلك المنطقة تعرف باسم "ايتشيهارا"، كما يطلق الاسم على إحدى المحطات التى تقع على مسار خط السكة الحديد المتجه الى جبل "كوراما". ولكن هذا الخط افتتح حديثاً أما عند حديث أبى فكان المرء يقطع الرحلة من "كيوتو" الى شيزووتشينو مستقلاً عربة الريكشة مسافة ستة أو سبعة أميال أو راكباً حنطوراً من "ديماتشى" الى "مياكى هاتشيمان" ثم ماشياً على قدميه حوالي ثلاثة أميال ونصف. وإذا استقل المرء القطار المتجه إلى "كوراياما" من محطة "ديماتشى" إلى "مياكى هاتشيمان" ثم ماشياً على قدميه حوالي ثلاثة أميال ونصف. وإذا استقل المرء القطار المتجه إلى "كوراياما" من محطة "ديماتشى" تكون "شوجاكونين" المحطة الرابعة تليها محطة "يامابانا" ثم "هاتشيمانامى" ثم "ايواكورا" وبعد ثلاث محطات منها نجد "ايتشيهارا" المحطة العاشرة" أي شيزووتشينو تليها "كيبونى جوتشى" وبعدها المحطة الأخيرة "كوراما". ولذلك فإن مدينة "شيزووتشينو" أقرب الى كوراما منها إلى "كيوتو".

وثمة علاقة وثيقة تربطنا منذ عدة أجيال بعائلة "نوزى" وهم من الفلاحين فى تلك المنطقة. أعتقد أن أحد أجدادى كان قد تبنته تلك العائلة، وحتى الآن فى جيل والدي يقدم كبير تلك العائلة مع زوجته لمنزلنا للتهنئة فى عيد "بون" وعيد رأس السنة الميلادية بحمل كارة مما لذ وطاب من الخضروات الطازجة. وإن بادنجان كامو وفول الصويا الأخضر الذي يهدوه إلينا غير متوافر فى السوق. فكنا دائماً ننتظر بشوق قدوم عربتهم، كما كنا كثيراً ما ندعى فى الخريف إلى "تاكى ياما" ونقضي ليلة هناك ثلاثتنا مع بعض الأقارب ومربيتى. ولهذا كنت أعرف المنطقة معرفة جيدة منذ طفولتى.

كان الطريق من منزل عائلة "نوزى" الى تاكى ياما يمر بنهر "كوراما" أحد منابع نهر "كامو". وهذا المكان أكثر ارتفاعاً من "كيوتو" وإذا تسلقنا التل أكثر ظهر أسفلنا مبنى الفندق المقام على طريق الجبل المنحدر. ويقال أن "فوجيوارا سىكا" اعتكف بهذا المكان بعد أن رفض دعوة الشوجون "ايياسو" للحضور للعاصمة "ايدو" فى أوائل عصر "طوكوجاوا". ومنذ زمن بعيد أصبحت الفيلا التى كان يقطنها "سىكا" فى هذا الجبل أطلالاً، وكانت تقع على منعطف ملتوي كبير من نهر "كوراما". وقد اختار "سىكا" ثمانية أماكن بالقرب من هذا المكان كأحسن ثمان أماكن طبيعية خلابة وأطلق عليها أسماءاً مثل "الصخور المتكهفة التى ترقد على الماء كالوسادة" و "الشلال الذي تحلق فوقه الطيور" و "الوادي الجبلى الذي يجرى فيه النهر". أيضاً من الأماكن الشيقة القريبة من هنا معبد "فوداراكو" الشائع بين عامة الناس باسم معبد "كوماتشى" وهو يضم رفات "أونو كوماتشى" والكابتن "فوكاجوسا". ويشير الدليل المصور للأماكن السياحية الى أن معبد "فوداراكو" الذي توقف به الإمبراطور "جوشيرا كاوا" أثناء رحلته الى أوهارا كما ورد فى فصل (رحلة الإمبراطور إلى أوهارا) فى "حكاية هيكى" هو نفسه هذا المعبد. وهناك إشارة إلى "كوماتشى" فى أغنية من إحدى مسرحيات "النو"، حيث تذكر انه منذ زمان بعيد تصادف مرور رجل بمنطقة "ايتشيهارانو" فسمع صوتاً ينبعث من كتلة ملتفة من أعشاب سوسوكى يتغنى بأبيات الشعر التالية:

عندما تهب رياح الخريف

يقفر الحقل الصغير

ولكن أين الحقل فى هذا القفر من أعشاب سوسوكى

واذذاك أدرك الرجل أن هذا الصوت هو روح "أونو كوماتشى" فقرر أن يرحل إلى "ايتشيهارانو" ليصلى أمام أطلالها عسى أن تستكين روحها. ولقد شاهدت صورة زيتية قديمة تظهر فيها أعشاب سوسوكى بارزة من محجر عين جمجمة من المرجح أنها لكوماتشى. وفى معبد كوماتشى يوجد "حجر المبكى" الذي نقشت عليه أبيات الشعر السابقة. وفى أثناء طفولتى كانت هذه المنطقة بأكملها قفراً موحشاً تغطيه أعشاب سوسوكى.

انقضت عدة أيام منذ عرفت هذا الخبر المذهل عن تاكيشى من أبى وأمى ولم أستطع أن أمنع نفسي من زيارة عائلة "نوزى" سراً وحدي. ولكن لم يصل عزمى الى حد اختطاف تاكيشى واصطحابه لبيتنا، فليس من شأنى أن أقدم على مثل هذا الأمر بمبادرة من نفسي دون التأكد من رأى الوالدين. وإنما كان ينتابنى شعور لا يقاوم بالأشفاق على أخى الصغير المسكين الذي انتزعوه من حضن أمه الحنون وأرسلوه الى بيت من بيوت الفلاحين فى الريف وهو لا يدري شيئاً. وكنت أمل من زيارتى أن أطمئن على الأقل على صحته ثم بعد ذلك أعود للبيت وأحث أبى وأمى على إعادة النظر فى قرارهما. وقد عازمت على أننى إذا لم يلقياً بالاً إلى ما أقوله فى أول الأمر فسوف ألح عليهما عدة مرات وسوف أستمر فى زيارة تاكيشى مراراً حتى لا تنفصم علاقتنا به وأنقل أخباره إلى أبى وأمى وهو يكبر، فإذا فعلت ذلك تعاطف معى والداى فى النهاية.

بدأت رحلتى فى الصباح الباكر ووصلت الى منزل عائلة "نوزى" قبل الظهر بقليل. واستطعت أن أقابل نوزى وزوجته اللذين عادا لتوهما من الحقل ولكن عندما طلبت منهما أن أرى تاكيشى ظهر عليهما الارتباك وقالوا:

تاكيشى ليس موجودا هنا.

" ليس موجودا هنا؟ إذن أين يكون؟ "

" يعنى.. يعنى.. "

بدأ الاثنان يتكلمان وكل منهما يحملق فى وجه الآخر كأنهما لا يجدان اجابة لسؤالى، ولكن بعد الحاحى بالسؤال مرتين وثلاثة يأست زوجة نوزى وقالت:

استودعناه لدى عائلة تقطن مكاناً أبعد فى الريف.

ثم كان مضمون كلاهما أنهما استودعاه لدى عائلة طيبة مؤتمنة حيث لسوء الحظ لم تكن لديهم من يمكنها ارضاعه، كما أن والداى يريدان ابعاده الى مكان أكثر بعداً فى الريف. وعندما سألتهما:

وأين يقع هذا الريف البعيد؟

ظهر الضيق أكثر على وجه نوزى وقال:

والداك يعرفان ذلك فأرجوك أن تسألهما، فلا يمكننى أن أخبرك بنفسى.

وقالت زوجته وهي تقف بجانبه:

ان والدك طلبا منا ألا نخبرك اذا سألتنا.

ولكنى فى النهاية استطعت أن أنتزع منهما السر وعرفت أن المكان يقع فى قرية تسمى "سيريفو". وقد ورد اسم هذه القرية فى كلمات احدى الأغانى الشعبية التى تقول: إن بلدتى

تقع فى الريف النائى عند خارج "كيوتو" ناحية "ياسى" و "أوهارا" و "سيريفو". كما ذكرت فى احدى فقرات مسرح الكابوكى فى مسرحية "مدرسة القرية الابتدائية" بالكلمات الآتية:

عطف تاكيبي جينزو وزوجته على الطفل الذكى "سوجاوارا ميشيزانى" ورعاياه قائلين للناس أنه ابنهما، وأخفياه فى قرية "سيريفو" التى تقع فى حضن الجبال حتى لا يراه أحد.

ولكن هذه القرية تقع بعد مضيق "ايبومى" فى الطريق من "شيزووتشنو" الى "أوهارا" وتسمى حالياً "كوسافو". أما القرية التى أخبرنى بها نوزى وزوجته فهى قرية مختلفة تقع فى "تامبا" بين الجبال وهى أكثر انعزالاً وبعداً. ولكي أهتدى إليها لا بد أن أذهب أولاً إلى "كيبونى جوتشى" ثم أعبر مضيق "سيريفو" الذى يقع عند حدود "ياماشيرو" و "تامبا" وخلال الأميال الخمسة التى يقطعها المرء من "كيبونى" إلى "سيريفو" لا يترأى له منزل واحد. كما أن مضيق سيريفو مضيق وعر مرتفع ويبلغ ارتفاعه ضعف مضيق "ايبومى".

فما هو السبب الذى اضطر والداى أن يرسلأ أخى الرضيع الى مكان كهذا؟

لماذا يخفى والداى تاكيشى بعيداً فى أعماق جبال "تامبا" بينما أخفى سوجاوارا فى "كاتاياما" و "مكان نائى فى ريف كيوتو"؟

كنت أريد أن أكتشف مكان أخى فى نفس اليوم ولكننى لم أكد أعرف الا اسم القرية ولم يخبرنى نوزى وزوجته باسم العائلة. ولذلك كان لابد أن أجوب البيوت بيتاً بيتاً للسؤال عنه. على أية حال فلم يكن لدى أى وقت لكى أواصل الرحلة إلى كيبونى وأشق طريقى وسط ذلك المضيق الجبلى الشديد الانحدار. فتخلّيت عن الذهاب اليوم مؤقتاً ودرت على عقبى موهن العزيمة من حيث أتيت فى الصباح.

وفى خلال اليومين أو الثلاثة التالين توترت علاقتى بوالدى وأمى ونادراً ما كنا نتبادل الحديث على العشاء. ولم يقل أحد منهما أى شئ عما اذا كانت عائلة نوزى أخبرتهما عن رحلتى الى "شيزووتشنو"، كما لم أتعرض بنفسى لهذا الموضوع.

وكان انتفاخ ثديى أمى مصدر ازعاج لها ولذلك كانت تعزل نفسها فى بيت الشاى لكى تستعمل بزازة اللبن لتخفيف الضغط عن صدرها أو كانت تستدعى إحدى الخادمت لكى تدلكها. وفى تلك الأثناء كان أبى يبدو عليلأ وبدأ يخلد للنوم بعد الظهر فى الغرفة المتصلة بالشفرة ساندأ رأسه على وسادة صينية مصنوعة من الورق المعجن القرمزى اللون. كما كان يبدو محمومأ أيضاً وكثيرأ ما كنت أراه واضعأ ترمومتراً فى فمه.

كنت قد نويت الذهاب الى "سيريفو" بأسرع ما يمكن وأبحث عن حجة للتغيب يومين أو ثلاثة عن البيت. ولكن فى أحد الأيام بعد الظهر، فى أواخر الربيع حيث تفتحت شجرة الست المستحية التى كان جدي فخورأ بها، أردت أن أقضى بعض الوقت فى القراءة فى المقصورة، والتقطت ترجمة انجليزية لقصة "أنا كارنينا" ومررت من الحديقة من أمام الشجرة المزهرة وارتقيت درجات المقصورة. وفجأة ترامى إلى بصري منظر أمى وهى تجلس وحدها بالقرب من حافة شرفة المقصورة على وسادة من الجلد بنية اللون فى مواجهتى، وكانت منهمكة فى اخراج اللبن من ثدييها. وأثار ذلك تعجبى فقد كانت معتادة أن تمارس ذلك الأمر فى بيت الشاى. ولم أكن أتخيل أبداً أن أراها فى شرفة المقصورة فى هذا الوضع مائلة فى تراخ بينما كان الكيمونو مفتوحأ كاشفأ لى ثدييها عاريين. ولما فقت من وقع المفاجأة التفتت للخلف منصرفأ نحو الحديقة، وعندئذ سمعتها تنادينى "يا تاداسو" بصوتها الهادئ المعتاد تقول مرة أخرى: لا تنصرف يا تاداسو.

فقلت: سوف أعود فيما بعد فلم أكن أعرف أنك هنا.

"كنت أكاد أختنق فى بيت الشاى فسقفه منخفض ولذلك فكرت فى استعمال المقصورة، هل كنت تريد أن تقرأ ذلك الكتاب؟

" سوف أعود فيما بعد "

قلت ذلك فى ارتباك وهممت بالانصراف.

"لا حاجة بك للانصراف فسوف أنتهى حالاً، يمكنك الانتظار مكانك."

قالت ذلك واستوقفتنى مرة أخرى.

"انظر ان ثدياى ممتلئان ويسببان ألماً لى."

قالت ذلك ولكنى بقيت صامتاً. فاستمرت فى حديثها قائلة:

يجب أن تتذكر كيف كنت تحاول أن تلحسهما حتى بلغت الثانية أو الثالثة عشرة وكان يضايقك عدم تدفق اللبن منهما مصصت بشدة.

ثم أزاحت أمى البزازة من حلمة ثديها الأيسر لتضعها على حلمة الثدي الأيمن. وكان ثديها منتفخاً داخل الوعاء الزجاجى ويكاد يملؤه وتتدفق من حلمتها تيارات صغيرة من اللبن، ثم أفرغت اللبن فى كوب ورفعتنى لترينى اياه.

" ألم أقل لك انى عندما ألد سيكون لدى لبن كثير وسأجعلك ترضع منه؟"

كنت قد أفقت من الصدمة الأولى نوعاً ما وأحملك فيما تفعله ولكنى لم أكن أعرف بماذا أجيبها.

"هل مازلت تتذكر مذاقه للآن؟"

وبدلاً من الكلام فإنى نزعته الى خفض عينى وهزرت رأسى

"اذن فلتجرب مذاقه."

قالت ذلك وهى تناولنى كوب اللبن.

"هيا ذق"

ثم لم أدر الا ويدائى تمتدان نحو الكوب وأخذته ورشفت ورشفتين أو ثلاثة من السائل الأبيض الحلو.

"ما مذاقه؟ هل تذكرت الطعم القديم؟ أظن أن أمك أَرْضَعْتَكَ حتى بلغت الرابعة."

كان غير مألوفاً أن تقول لى أمى الجديدة (أمك) مميزة بينها وبين زوجة أبى الأولى. وأضافت قائلة:

"ترى هل مازلت تتذكر كيف ترضع من الثدي؟ سأجعلك ترضع ان كنت تستطيع."

وفتحت صدرها وأمسكت أحد ثدييها بيدها ومدت لى الحلمة قائلة:

فلتجرب وترى هل تعرف كيف ترضع أم لا.

وجلست أمامها عن كُثْب بحيث تلامست ركبتيها وأملت رأسى نحوها ووضعت احدى الحلمتين بين شفتى. فى البداية كان يصعب على أن أخرج أى لبن ولكن فى أثناء المص بدأ لسانى يستعيد مهارته القديمة. كنت أربو أمى طولاً بخمسة أو ستة بوصات ولكنى انحيت ودفنت وجهي فى صدرها، وكنت أَمص فى نهم اللبن الذى يتدفق خارج الثدي. ثم بدأت أغمغم "ماما" بصوت صبيانى مدلل مدفوعاً برغبة غريزية. وقد لبثنا فى عناقنا حوالي نصف ساعة، وأخيراً صاحت قائلة:

هذا يكفي اليوم، أليس كذلك؟

وسحبت ثديها بعيداً عن فمى فنحيتها جانباً دون أن أنبس بكلمة وفررت نحو الحديقة قافراً من الشرفة.

ولكن ما معنى سلوك أمى فى ذلك اليوم؟ كنت أعرف أنها لم تخطط عن عمد شيئاً مما حدث لأننا تقابلنا فى المقصورة بمحض الصدفة. إذن هل عند لقائنا المفاجئ أحست فجأة برغبة فى ارباكى؟ بما أن لقائنا كان مفاجأة بالنسبة لها كما كان بالنسبة لى فربما أنها أحست برغبة فى أن تغرينى بهذه الطريقة لنزوة عابرة أصابتها. ومع ذلك فقد كانت تبدو هادئة ساكنة بحيث لم يظهر عليها أنها تفعل شيئاً غير عادى. وربما كانت ستحتفظ بهدونها هذا حتى لو باغتنا أحد على غرة. وربما كنت لا أزال فى نظرها طفلاً رغم بلوغى هذه السن كان مايدور برأس أمى لغزاً لا يمكننى فهمه. ولكن سلوكى أنا نفسي كان منحرفاً عن الطريق السوي بشكل واضح. فمن اللحظة التى رأيت فيها ثدييها مكشوفين أمامى على فجأة تخايل لعينى مرة أخرى عالم الأحلام الذى كنت أتوق إليه وطالما انتظرت، وسيطرت على تفكيرى الذكريات الماضية التى كانت تلازمنى على نحو مستمر. وأخيراً اندفعت الى هذا التصرف الجنونى بعد أن سمعت منها كلمات التشجيع وبعد أن قدمت لى كوب اللبن.

وفى غمار نوبة الخجل من نفسي التى انتابتنى كنت أذرع المكان المحيط بالبركة جينة وذوهاباً منفرداً متعجباً من نفسي التى كانت تضمر هذه المشاعر الجنونية. ولكن رغم أنى كنت أسفاً على تصرفى وأشعر بتأنيب الضمير إلا أنى فى ذات الوقت كنت أرغب فى ارتكاب ما فعلت مرة أخرى بل مرتين وثلاثة، أو على الأقل إذا تعرضت لنفس الموقف الذى تعرضت له اليوم ووجدت تشجيعاً واغراءً من أمى لما قويت ارادتى على الرفض.

بعد هذا الحادث أتحامى أن أذهب للمقصورة كما لجأت أمى وكأنها تراعى شعورى إلى استعمال بيت الشاى فقط. ولسبب ما بعد ما حدث بينى وبين أمى لم تعد الرغبة التى كانت تملكنى وتلج على، أى رغبتى فى الذهاب إلى "سيريفو" لاكتشاف مكان تاكيشى، قوية كما كانت من قبل. كنت أولاً وقبل أى شئ أريد أن أكتشف السبب الذى دفع والداى الى اتخاذ هذا الموقف نحوه، وهل كانت تلك فكرة أبى أم أنها فكرة أمى. وما يمكننى تخمينه حالياً هو أن أمى ربما أرتأت عدم جواز ابقاء وليدها معنا فى البيت مراعاةً لأمى الأولى، وأن أبى أبدى تأييده لهذا الشعور الطيب من جانبها. فلا شك أن حبه لزوجته الأولى لا يزال عنيفاً عنيفاً الآن وربما ظن أنه يسئ اليها باتخاذ ابنه غير الذى خلفته ورائها تذكراً منها. وربما أيدته أمى الجديدة فى ذلك وتخلت عن ابنها ومن الجائز أن هذا التصرف كان بالنسبة لها تعبيراً عن حبها لأبى وانكارها لذاتها من أجله. وفوق ذلك ألم تكن متعلقة بى أكثر من تعلقها بفلذة كبدها؟ ولم أستطع أن أجد أية دوافع أخرى لقرارهما غير هذه الأسباب. ولكن فى تلك الحالة فلماذا أخفيا تاكيشى سراً دون حتى اطلاعى على مكانه رغم أنهما لم يكن يضرهما شئ لو أفضيا إلى بما يعتمل فى صديهما أو ألحما الى بنواياهما مقدماً؟

كما ذكرت من قبل كان أبى فى الآونة الأخيرة يبدو عليلاً، وكنت أشعر أن هذا له علاقة ما بابعاد تاكيشى، فقد بدأ شحوب وجهه يظهر منذ نهاية السنة الماضية، كما هزل قوامه تدريجياً بصورة ملحوظة. ومع أنه لم يكن يعاني من السعال أو البلغم الا أنه كان يبدو محموماً بعض الشئ مما جعلنى أرتاب فى اصابته بمرض صدرى. وكان الطبيب الخاص لأبى يدعى "كاتو" وتقع عيادته فى "تيراماتشى" بمنطقة "ايماديجاوا". ولم يطلب منه أبى أن يزورنا بالمنزل خلال المراحل الأولى من المرض أبداً، فكان يقول:

إنى خارج أترىض بالمشى.

ثم يستقل الترام ذاهباً للطبيب سرّاً. ولم أشتم ما فى الأمر الا منذ هذا العام فقد سألته: هل تشكو من شئ يا أبى؟

فأجاب بغموض: لا.. ثمة شئ خاص.

"أليس عندك دواء من عيادة الدكتور كاتو؟"

"ليس الأمر خطيراً. مجرد متاعب بسيطة فى التبول."

اذن تعاني من شئ كالتهاب المثانة؟"

"ربما شئ من هذا القبيل"

وأخيراً أصبح واضحاً للجميع أن أبى يشعر بحاجة دائمة للتبول فى فترات متقاربة، فكنا نلاحظ ترده على المرحاض كثيراً. كذلك كانت بشرته فى حالة أسوأ وفقد شهيته للطعام تماماً. وبعد انتهاء موسم المطر وبدء اشتداد حرارة الصيف بدأ أبى يقضى معظم يومه مسترخياً وبعد غروب الشمس كان أحياناً يخرج لتناول عشاءه معنا بجانب البركة ولكنه كان يبدو كأنه يقوم بهذا العمل قسراً عنه مراعاة لى ولوالدتى. فكان لا يبدو بصحة جيدة.

"إن أبى يقول أنه يعاني من التهاب المثانة، هل هذا هو كل ما فى الأمر حقاً؟"

وكان يخامرني شك بوجود سر يريد اخفاؤه عنا وذلك لتعريضه من تحديد اسم مرضه واخفاؤه عنا مجرد ترده على عيادة الطبيب. وفى أحد الأيام زرت عيادة كاتو وسألت مديرها الدكتور كاتو السؤال السابق.

"من ناحية الصحة صحيح أنه يعاني من هذا ولكن ألم يخبرك بأى شئ أكثر من ذلك؟"

قال ذلك الدكتور كاتو الذي يعرفنى منذ طفولتى وكان يبدو مندهشاً بعض الشئ ". .

"كما تعلم حضرتك فأبى خجول وكثوم ولا يميل للتحدث عن مرضه."

"هذا يجعلنى فى موقف صعب."

وأضاف "بالطبع لم أكن صريحاً جداً مع والدك ولكنى ألمحت له لكي يفهم أن حالته خطيرة. ولذلك أعتقد أنه وكذلك أمك يفهمان تقريباً خطورة حالة والدك.

ولا يمكننى أن أفهم لماذا أخفيا عنك الأمر. ربما يريدان أن يجنباك أحزاناً مبكرة أنت فى غنى عنها. أما رأيي الخاص أنه ليس من الحكمة فى شئ إخفاء الحقيقة عنك طالما أنك قلق هكذا. ان علاقتى بأسرتك ليست وليدة الأمس أو اليوم وانما ترجع لسنوات طويلة الى عهد جدك، ولذلك لا أجد مانعاً من أن أخبرك بنفسى بهذه الحقيقة دون استئذان والديك."

ثم مضى يقول: إنى للأسف مضطر أن أخبرك كما قد تكون خمنت، أن حالة والدك غير مشجعة على الاطلاق.

وبعد ذلك اعترف لى بالأمور التالية. فى الخريف الماضى لاحظ أبى تغيرات غريبة طرأت على صحته، وذهب للفحص عند الدكتور كاتو للمرة الأولى. وكان يشكو من أعراض متنوعة مثل دم فى البول وألم يصاحب التبول واحساس بضغط شديد فى ختلة البطن وارتفاع دائم فى درجة حرارة الجسم. واكتشف الدكتور كاتو لتوه عن طريق اللمس أن الكليتين متورمتين، كما اكتشف أيضاً عصىة السل فى بوله. وكان يعلم أن حالته سيئة جداً ولكن نظراً لعدم تخصصه فى هذا المجال فقد حثه على عرض نفسه على قسم الأمراض التناسلية فى المستشفى الجامعى وإجراء فحص خاص بالأشعة السينية. ويبدو أن أبى كان يكره ذلك ولكنه أخيراً ذهب على مضض بعد أن ألح عليه الدكتور كاتو عدة مرات وأعطاه خطاب توصية لأحد أصدقائه بقسم الأمراض التناسلية. وبعد يومين علم الدكتور كاتو بنتيجة الفحص من صديقه فوجد أنه

كما كان يخشى سراً أظهر الكشف بمنظار المثانة والأشعة السينية أنه مصاب بمرض السل الكلوى وأن حالته المرضية قد تكون مهلكة وذلك بصورة واضحة. لو أن المرض هاجم كلية واحدة لكان هناك أمل فى انقاذه ببتها وحتى فى تلك الحالة لم تكن الدلائل تبشر بخير حيث تتراوح نسبة الوفيات بين مرضى هذا الداء بين ثلاثين وأربعين فى المائة، وفوق ذلك أصيبت لسوء حظه كلتا الكليتان، ولهذا كان المرض لا يقاوم. ومع أنه لا يبدو مريضاً جداً فى الوقت الحالى حيث يمكنه الخروج من المنزل، إلا أنه سوف يضطر قريباً الى ملازمة الفراش وسوف يعيش على الأكثر سنة أو سنتين أخرتين. وقد حذر الدكتور كاتو عندئذ بطريقة غير مباشرة قائلاً:

إن هذا المرض ليس شيئاً يمكن أن تتحمل عواقب اهماله ومن الآن فصاعداً سوف أزورك للكشف مرة أو مرتين أسبوعياً ولذلك يجب أن تبقى بالبيت وتخلد للراحة بقدر ما يمكنك.

وكان أبى يسأل والدكتور يجيب هكذا.

" وما أريد أن أحذرك منه هو أنه يجب الامتناع عن المعاشرة الزوجية، وفى الوقت الحالى لا يوجد خطر من العدوى عن طريق التنفس ولذلك فلست فى حاجة الى القلق على أهل بيتك، ولكن يجب أن تأخذ زوجتك حذرهما".

" هل اذن مرضى نوع من السل؟"

" نعم ولكنه ليس السل الرئوى."

" اذن أى نوع من السل هو؟"

" إن العصية قد هاجمت الكلية ولكن حيث أن لديك كليتين فلا داعي للانزعاج."

ونجح الدكتور كاتو بصعوبة فى التمويه على أبى بتلك الأجوبة المرقعة مؤقتاً، أما أبى فقد أبدى تفهمه وقال:

انى افهم كل شئ وسوف أفعل ما أوصيتنى به، ولكنى أحب الخروج من المنزل للتريض بالمشى، وطالما سمحت لى صحتى سأحضر لعيادتك بنفسى.

واستمر أبى فى زيارة الدكتور كالمعتاد وكان واضحاً أنه لا يرغب فى أن يأتى الطبيب لبيتنا. وكان فى الغالب يذهب بمفرده ولكن فى بعض الأحيان كانت تصحبه أمى. وكان الدكتور يشعر بأنه من الضروري أن يطلعها بصراحة على حالة زوجها ولكن لم تواتيه الفرصة المناسبة لذلك. وفى أحد الأيام بعد ذلك فاجاه أبى بقوله:

كم باقى لى من الزمن يا دكتور؟

فسأله الدكتور: ما الذى يملك على هذا الكلام؟

وابتسم أبى فى وهن قائلاً:

لا يجب أن تخفى عنى شيئاً فلقد كان يندرنى هاجس بذلك منذ البداية.

"ولكن لماذا؟"

" لاأدرى، ربما أمكنك أن تسميه الغريزة وهو مجرد شعور كان يخالجنى، ما الأمر يا دكتور؟ إنى أدرك طبيعة الأمر جيداً ولذلك أرجو أن تخبرنى بالحقيقة."

وكان الدكتور كاتو ملماً بجوانب شخصية أبى فصدق كلامه. كان أبى حاد الملاحظة بفطرته وربما استطاع أن يخمن شيئاً مصيرياً كهذا، ومن الطبيعى أن يخمن طبيعة مرضه من طريقة كلام ومعاملة الدكتور كاتو وأطباء المستشفى. ثم حدث الدكتور كاتو نفسه بأنه على أية حال سيضطر ان عاجلاً أو آجلاً الى أن يعترف له أو لأحد أفراد أسرته، فإذا كان مستعداً للأمر هكذا

فمن الأحسن له أن يعترف له الآن. فلم يحاول أن ينفي كلام أبي رغباً عنه وأجاب موافقاً عليه بطريقة مواربة. كان ذلك كل ما قصه على الدكتور كاتو ثم أضاف بعد ذلك أننا جميعاً لا أمى فقط يجب أن نأخذ حذرنا لأن الداء غالباً ما يغزو الرنتين فى النهاية.

والأحداث التالية هى أكثر أجزاء حكايتى التى أجد صعوبة فى سردها. كنت قد أطلقت على حكايتى تلك اسم (جسر الأحلام) فرضاً وكتبتها على هيئة قصة رغم أن الكتابة فن أعرفه بالهواية لا بالمهنة. ولكن كل شيء جاء فيها هو حقائق حدثت فعلاً فى أسرتى وليس ثمة زيف فيها. ومع ذلك فإذا سألت عما يدعونى للقلم فلن أجد اجابة. إن ما يدفعنى للكتابة ليس رغبتي فى أن يقرأ الآخرون ما أكتبه أو على الأقل فأنى لا أنوي أن أطلع انساناً على ما أكتبه طالما كنت على قيد الحياة، وإذا قرأها أحد بعد موتى بالمصادفة فلن يضيرنى هذا فى شيء ولكن حتى إذا لم يطلع عليها أحد أبداً فلن أندم على ذلك. إنى أكتب لأنى ببساطة أحب الكتابة نفسها وأجد متعة فى استرجاع أحداث الماضى ومحاولة تذكرها واحداً تلو الآخر. بالطبع فان كل ما أسجله هنا أمور صادقة فأنى لا أكتب أى أشياء مزيفة أو مشوهة. ولكن هناك حدوداً للصدق ويوجد خط لا يصح لى أن أتعبه. ولهذا فرغم أنى لا أكتب شيئاً كاذباً بالتأكيد إلا أنى لا أكتب أيضاً الحقيقة كلها. فلأعترف بأنى أخفى جانباً من الحقيقة مراعاةً لمشاعر أبى وأمى ونفسي. وإذا قال البعض ان عدم قص الحقيقة برمتها يعادل فى الواقع التزييف فهذا رأى شخصى ولا أريد أن أعرضه.

ملأت الأمور التى كشفها لى الدكتور كاتو عن حالة أبى الصحية عقلى بأوهام شيطانية لا نهاية لها. اذا كان أبى قد علم بمصيره البانس فى خلال الخريف الماضى فانه كان يبلغ حينئذ ثلاثة وأربعين عاماً وكانت أمى فى الثلاثين بينما كنت فى الثامنة عشرة من عمري. ولكن أمى رغم أنها فى الثلاثين فقد كانت تبدو أصغر من عمرها الحقيقى فتبدو فى الخامسة أو السادسة والعشرين كأنها أختى الكبرى. وفجأة تذكرت حكاية نشأتها التى أفضت إلى بها مريبتى ونحن نتمشى فى الغابة فى طريق الضريح قبل أن تترك منزلنا فى العام الماضى. لقد قالت حينذاك "ولكن ينبغى أن يكون ما أقوله سراً لا تبوح به لوالدك"، ولكن ألا يكون أبى نفسه هو الذي أوحى إليها بأن تطلعن على ذلك؟ ربما كانت لديه أسباب جعلته يعتقد أنه من الأحسن الآن فصم الصلة بين أمى الحقيقية وأمى الثانية اللتين أصبحتا مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً فى عقلى. كذلك فكرت فيما حدث منذ وقت غير بعيد فى المقصورة. كان ما حدث يبدو كأنه وقع عن طريق مصادفة غير مقصودة ولكن ألا يكون أبى قد خطط مسبقاً لكي يمكن أن يحدث ذلك مصادفة؟ على الأقل لا أظن أن أمى أغوتنى بهذه الطريقة بدون موافقته. والحق أننى رغم ابتعادى عن المقصورة فترة بعد ذلك إلا أنى ذهبت هناك مرة أو مرتين بعد نصف شهر من ذلك لكي أضع اللبن من أمى. فى بعض الأحيان كان أبى غائبا عن المنزل فى ذلك الوقت ولكنه كان موجوداً فيه فى أحيان أخرى. وأستبعد أنه كان يجهل ما تفعله أمى أو أنها كانت تخفيه عنه. وما أرجحه هو أن أبى كان كل ما يشغل تفكيره حالنا بعد وفاته، وأنه أراد أن يخلق علاقة أكثر ألفة بينى وبين أمى حتى تقتنع بأنى يمكننى أن أحل محله بعد وفاته، وان أمى لم يكن لديها اعتراض على هذا. وهذا يفسر لى سبب ارسال تاكيشى الى سيريفو. ولا يمكننى أن أذكر شيئاً أكثر مما قلته. وقد يبدو لك أنى أتخيل بحماقة أشياء غريبة عن والداى ولكن والدي أكد لى ما كنت أخمنه وهو ينازع الموت كما سيرد فيما بعد. لا أعلم متى عرفت أمى يقيناً أن أيام أبى فى الدنيا أصبحت معدودات أو ما اذا أخبرها بمجرد علمه. ولكن هل كان قولها كلمة (أمك) فى ذلك اليوم فى المقصورة مصادفة كما كان يبدو عليها أم أنها اختارت هذه الكلمة عن عمد؟ بل لا شك فى أن أبى أخبرها بمصيره المحتوم قبل أن يولد تاكيشى، وعندما حدسا ما يخبئه لهما المستقبل أرسلتا تاكيشى للتبنى بناء على اتفاق ضمنى بينهما حتى بدون تبادل الحديث بصراحة فى هذا الموضوع.

من العجيب أنه لم تكن تظهر على أمى أية كآبة أو حزن لفراق زوجها الوشيك، بعد بضعة شهور، فهل كانت شخصيتها وطبيعتها تميل الى عدم اظهار أحاسيسها بصراحة سواء السعيدة أو الحزينة مما جعلها تحجب أحزان قلبها بهدوء خلف وجهها الرقيق الجميل؟ أم كانت تتحمل فى صمت قسراً عنها خشية أن أرى اضطرابها؟ كلما نظرت لعينيها وجدتهما جافتين وصافيتين. وحتى الآن لا أستطيع أن أفهم حقاً أحاسيسها المعقدة الكامنة خلف هدونها الظاهري. ولم تحاول أبداً أن تجد فرصة للحديث معى عن موت أبى حتى ساعات الاحتضار الأخيرة.

ولما حل أغسطس لم يعد أبى قادراً على النهوض من الفراش وأصبح أسيراً لفراش المرض تماماً. وعند ذلك الوقت تورمت كافة أجزاء جسمه، وأصبح الدكتور كاتو يتردد علينا للكشف يومياً أو كل يومين دون توان. وازداد هزال أبى بصفة مطردة حتى فقد القوة على الجلوس لتناول طعامه. ولم تكن أمى تتركه لحظة وحده، ونصحها الدكتور كاتو قائلاً:

ألا يستحسن أن تستخدمى ممرضة؟

ولكنها أجابت: بل سوف أتولى رعايته بنفسى.

ولم تكن تسمح لأحد أن يلمسه. وكان واضحاً أن هذه رغبة أبى أيضاً. كانت أمى تنظم وجباته الثلاثة مع أنه كان يأكل لقمة أو لقميتين فقط وكانت تفكر وتأمّر باعداد أطعمته المفضلة مثل السوشى المصنوع من سمك "أيو" وسمك ثعبان الماء وتخدمه على المائدة بنفسها. ومع ازدياد تكرار تبوله أضيف إلى أعيانها عيب جديد فكان عليها أن تناوله نونية السرير طوال اليوم تقريباً. ومع اشتداد الحرارة فى منتصف الصيف أصبح يعاني من قرحة الظهر فكانت أمى تعنى بها أيضاً، وكان من الضرورى أن تغسل جسمه بين الحين والآخر بمحلول من الكحول. وكانت لا تألو جهداً فى انجاز تلك الأعمال وتؤديها كلها بنفسها. وإذا حاول أحد غير أمى أن يساعد أبى تضرر بينما لم يكن ينبس بكلمة شكوى من الأعمال التى تقوم بها أمى. وتوترت أعصابه بشدة حتى أن صدره كان يضيق بأقل صوت هاون الماء فى الحديقة كان بالنسبة له ضوضاء وأمرنا بإيقافه. ثم لم يعد يتكلم الا عندما يحتاج إلى شئ ولكنه كان يرد على كلام أمى فقط. وأحياناً كان يعودده أصدقائنا أو أقاربنا وكان لا يريد أن يقابلهم أيضاً. وكانت أمى مشغولة بخدمته ليلاً ونهاراً وكلما أحست بالتعب حلت محلها مربيتى القديمة التى جاءت لتساعدنا. وأدهشنى اكتشاف تلك الناحية من شخصية أمى، تلك القدرة على التحمل والمثابرة.

وفى أحد الأيام الأخيرة من سبتمبر استدعيت مع أمى إلى جانب فراش أبى.

وفى اليوم السابق لذلك هبت سيول من الأمطار العارمة الغير مألوفة أدت إلى فيضان ما يسميه سكان المنطقة (جدول سيمى الضحل) واندفاع مياهه إلى الخلف داخل بركة حديقتنا فتلوثت مياهها وأصبحت كالطمي. كان أبى يرقد على ظهره ولكنه جعلنا نديره على جنبه بحيث يمكنه أن ينظر الى وجهينا بسهولة وقال: تعال هنا يا تاداسو أما أمك فلتنصت إلى من حيث تقف.

ثم أوما لى بالجلوس بجانبه.

"لم يعد أمامى وقت طويل فى الدنيا وانى مستسلم للقدر المحتوم، وعندما أرحل للعالم الآخر ستكون أمك فى انتظارى وأنى لسعيد للقيها مرة أخرى بعد تلك السنوات الطويلة. ان ما يسبب لى قلقاً هو أمك المسكينة هذه، فمازال أمامها شوط طويل فى الحياة، ولكن بعد رحيلى لن يكون لها أحد تعتمد عليه غيرك. لذلك أرجو منك أن توليها أشد عنايتك وأن تشملها بكامل حبك. يقول الجميع أنك تشبهنى إلى حد كبير وهذا ما أراه أنا أيضاً، وكلما تقدم بك العمر كلما

أصبحت تشبهني أكثر، فإذا كنت معها فسوف تشعر كأني مازلت على قيد الحياة. انى أريدك أن تعتبر هدفك الرئيسي في الحياة هو أن تحل محلى مع أمك وألا تنشد سعادة في شئ غير ذلك."

وكان أبى يحملنى فى وجهى طوال حديثه كأنما يبحث فى أعماق عيني عن شئ. لم ينظر لى أبى من قبل هكذا محدقاً فى عيني بعمق، مقتربة أعيننا إلى هذا الحد. ورغم أننى لم أفهم معنى نظراته فقد أومأت برأسى موافقاً وعندئذ تنهد تنهيدة تتم عن ارتياح، ثم بعد أن توقف عن الكلام لحظات ليسترد أنفاسه واصل حديثه: لكي تشعرها بالسعادة يجب أن تتزوج. ولكن اياك أن تعتبر زواجك هذا لأجلك فاعتبر أن هدفه هو أن تجد من تعاونك فى رعاية أمك. وكنت أفكر فى عروس لك وهي "ساواكو" ابنة "كاجيكاوا".

كان كاجيكاوا بستانياً يتردد للعمل بمنزلنا لسنوات طويلة وهذا هو لقب عائلته أما اسمه فهو "أويداتسو". وكان والده صبيياً يتمرن عند الجنائى "أويسو" الذي صمم فى أيام جدى حديقة بيتنا عش مالك الحزين، ثم تولى الاشراف عليها خلفاً لمعلمه بعد وفاته. فى عهد جدى كان الجنائى يتردد علينا يومياً وحتى فى أيام أبى الآن كنت أعرف كاجيكاوا الحالى جيداً حيث يتردد علينا مع مساعديه عدة مرات كل شهر للعمل فى حديقتنا. أما ابنته ساواكو فلم تكن مجهولة لى تماماً فقد اعتادت أن تزورنا مرة كل عام فى عيد "أوى" منذ أن كانت تلميذة فى مدرسة البنات الثانوية. كانت ساواكو فتاة عرفت ببشرتها الجميلة وجهها النحيل الأبيض البضاوى الشكل وهو وجه أشبه بما نراه فى صور "أوكينى" القديمة. وكان هذا الوجه جميلاً فى نظر بعض الناس. وخاصة بعد تخرجها من المدرسة الثانوية عندما بدأت تجميل وجهها بالمساحيق الكثيفة التى جعلته ملفتاً جداً للنظر. وكنت أتعجب لماذا تحتاج زواقاً وهي لها هذه البشرة البيضاء الجميلة. ولكن فى العام قبل الماضى توقفت بمنزلنا لدى عودتها من عيد "أورابون" بعد أن شاهدت الشعلة الكبيرة التى رسمت حرف "دائى" فى التلال المشرفة على نهر كامو، وكانت متضايقه من العرق الذى أسالته فاستحمت فى حمام بيتنا. وفى أثناء خروجها من الحمام مرت من أمامى فلاحظت نمشاً قليلاً فى وجنتيها مما فسر لى سبب استعمالها مساحيق كثيفة. بعد ذلك لم أرها لفترة طويلة، ولكنها منذ حوالى أيام زارتنا مع والدها للسؤال عن صحة أبى وحدث ما ألقنتى نوعاً ما وذلك لأن أبى طلب أن ندخلهما حجرته وأمضى معهما عشرين أو ثلاثين دقيقة بالرغم من رفضه عادةً مقابلة الضيوف. ولذلك أدركت أن هناك أمراً غير طبيعياً يدبر بينهم. ولهذا السبب لم يكن كلام أبى مفاجأة لى أبداً.

ومضى أبى فى حديثه قائلاً:

ويمكننى أن أقول أنك تعرف الكثير عن هذه الفتاة.

ثم وصف لى بالاختصار كيف تربت وتهذبت وما هى عاداتها وطبائعها. ولكنى لم أجد فيما قاله شيئاً جديداً لا أعرفه عنها حيث كنت أسمع عنها الكثير من قبل. كانت فى التاسعة عشرة من عمرها أى فى مثل سننى حيث ولدت مثلى فى عام 1906. وتخرجت من مدرسة البنات الثانوية منذ ثلاث سنوات بتفوق فهى فتاة ذكية. كما استمرت تتلقى دروساً مختلفة بعد تخرجها فأجادت فنوناً كثيرة بصورة لم تكن منتظرة من ابنة جنائى. وهكذا كان لديها كل ما يؤهلها لكي تطلب الأسر الكبيرة يدها لولا أنها لسوء حظها ولدت فى عام 1906 الذى يوافق عام الفرس المضطرم فى التقويم القديم. ولهذا لم يتقدم لطلب يدها عريس مرموق حتى الآن. وكنت أعلم هذه الأمور منذ فترة طويلة. ثم اختتم أبى حديثه طالباً منى أن أتزوجها وأضاف قائلاً:

ان الفتاة ووالديها سوف يرحبون بخطبتك لها فى سرور. عليك فقط أن توافق فيتم كل شئ. ولكن فى تلك الحالة أود أن أشرط شرطاً واحداً لى وهو أنك اذا رزقت بطفل فلترسله إلى مكان بعيد عنك، تماماً كما أرسلت أمك وليدها للتبنى بعيداً عنها من أجلك. ولست الآن فى حاجة إلى أن تخبر ساواكو أو والديها بأى شئ فوراً فيمكنك أن تبقى هذا الأمر بينك وبين

نفسك حتى تأتي ضرورة لذلك. وكلما عجلت بالزواج كلما كان أفضل. لتعقد مراسم الزواج بمجرد أن تنتهي سنة الحداد. ولا يدور بخلدی شخصاً مناسباً تختاره وسيطاً في حفل الزفاف ولكن يمكنك أن تختاره بالتشاور مع أمك وكاجيكاوا. بعد أن تحدث أبي هذا الحديث الطويل ورأى في وجهي امارات الموافقة على ما طلبه منى اطمأنت نفسه بسرعة. ثم أدناه على ظهره مرة أخرى.

وفي اليوم التالي أخذت تنتاب أبي أعراض احتباس وتبولن الدم ولم يعد بوسعه أن يتناول الطعام ثم راح في غيبوبة. وكان بين الحين والآخر يهذي بكلام غريب وعاش حوالي ثلاثة أيام بعد ذلك حتى توفي في مستهل أكتوبر. ولكننا لم يمكننا أن نفهم شيئاً من كلامه الذي لا معنى له وغير مترابط. وذلك باستثناء اسم أمي "تشينو" وعبارة مفككة "جسر... الأحلام..". كان يكررها عدة مرات. وكان آخر ما سمعته من أبي هذه العبارة.

وفي أوائل أكتوبر بمجرد انتهاء القداس البوذي الذي أقيم في اليوم السابع من الوفاة غادرت بيتنا مربيتي التي كانت قد عادت من الريف لتساعدنا في أغسطس. ولغاية قداسي اليومين الخامس والثلاثين والتاسع والأربعين جاءنا المواسون من أقارب أبي وأمي، وكانت تلك أول مرة نراهم منذ سنوات. ولكن رويداً رويداً تضاعل عددهم حتى أنه في قداس اليوم المائة لم يكد يحضر الا اثنين أو ثلاثة فقط. وفي ربيع العام التالي تخرجت من المدرسة الثانوية والتحق بكليّة الحقوق بالجامعة. وكان نادراً ما يتردد على منزلنا ضيوف بعد وفاة والدي الانطواني والذي لم يكن يميل الى العلاقات الاجتماعية والاختلاط بالناس، تماماً كما كانوا قليلين في أثناء حياته. وفي النهاية لم يعد يأتي لزيارتنا الا ساواكو ووالديها الذين كانوا يترددون علينا حوالي مرة في الأسبوع، وكانت أمي تقضي يومها بأكملها داخل البيت تقدم قرباناً الى مائدة الموتى وتصلي من أجل اطمئنان روح أبي أو عازفة قليلاً على الكوتو الذي تحبه أمي الأولى عندما تمل وتجد نفسها في حاجة إلى تغيير. ثم قررت أن تدير هاون الماء بعد صمته الطويل لأن البيت أصبح موحشاً وساكناً. وطلبت الى كاجيكاوا أن يهتدم له قطعة من الخيزران الأخضر. وسمعت من جديد صوت الطقطقات المعتاد الذي كنت أفتقده. ولم يظهر على أمي انهك من تمرّض أبي أثناء مرضه في العام الماضي وكانت تستقبل الضيوف المواسين خلال سلسلة القداسات البوذية الطويلة بعد وفاة أبي وهي دائماً ممتلئة الخدين ومتوهجة بالصحة كما كانت في الماضي. ولكنها الآن بدأت تظهر عليها بعض علامات التعب وكانت تجعل احدي الخادومات تدلك كتفها وساقها وخصرها من آن الى آخر. وكان أحياناً يتصادف وجود ساواكو ببيتنا فتقول: دعيني أدلك أنا.

ثم تقوم بتدليك أمي. وفي أحد الأيام عندما بدأت شجرة الست المستحية في التفتح خرجت للمقصورة وكنت أعلم أنني سأجد أمي وسواكو هناك. كانت أمي ترقد في مكانها المعتاد على وسادتين بينما كانت ساواكو تدلك ذراعيها بهمة ونشاط فقلت: ان ساواكو ماهرة في التدليك، أليس كذلك؟

وقالت أمي: إنها رائعة حقاً ولا تستطيع المدلكة المحترفة أن تدلك جيداً مثلها، وهي تجعلني أنعس حتى يغلبني النوم. انه شعور لذيذ.

فقلت: والظاهر أنها تعرف جيداً كيف تستعمل يديها، هل كنت تتلقين دروساً في التدليك يا ساواكو؟

"لا، لم أتلّق دروساً ولكني اعتدت أن أدلك كتفي والداي كل يوم تقريباً."

" هذا ما ظننته، فلا عجب إذن اذا فاقت مهارتك محترفة التدليك. ما رأيك في أن تدلك أنت أيضاً يا تاداسو؟"

" إنى لا أحتاج تدليكا، ولكن قد أصبح تلميذاً لها وأتعلم منها فن التدليك."

"ولماذا تحتاج إلى تعلم ذلك؟"

"حتى أستطيع أن أدلك مثلاً، فإنى أستطيع تعلم هذا القدر."

"ولكنك لك يدين خشتين وربما سببت لى ألماً."

"ان يدي ناعمتين بالنسبة ليد الرجل، أليس كذلك يا ساواكو؟ حاولى أن تجسيهما". فقالت ساواكو "فلنرى" وهي تشبك أصابعى فى أصابعها ثم تمرر يدها على راحة يدي.

"حقاً يا لهما من يدين رقيقتين وطريتين. لسوف يمكنك التدليك حقاً."

"هذا لأنى لم أمارس الرياضة كثيراً مثل باقى الرجال."

"لو أكسبت نفسك مهارة بالتدريب فسرعان ما تصير ماهراً."

ثم علمتنى ساواكو مختلف فنون التدليك لمدة قصيرة بعد ذلك، متمرنأ على تدليك ظهر وكتفى أمى. وكانت أحياناً تشعر بدغدغة خفيفة فتنتلق منها الضحكات. وفى شهر يوليو كنا ثلاثتنا نجلس بجوار البركة متمتعين بلطافة الجو فى المساء، وكنت أضع بعض زجاجات البيرة تحت فوهة هاون الماء بدلاً من أبى. وكانت أمى شريفة فتحتسى كوبين أو ثلاثة لما أدعوها أما ساواكو فتصب لنا وتدلى أمى ساقها فى الماء قائلة: يجب أن تجربى ذلك يا ساواكو فسوف تحسى ببرودة لذیذة. ولكن ساواكو كانت لا تحرك ساقها وتتكلف الجد وهي ترتدى ثوباً رسمياً صيفياً وشوراً يابانياً وحزام حريرى ثقيل يلتف باحكام حول خصرها. فكانت تجيب قائلة:

ان ساقيك فى غاية الجمال ولا أستطيع أبداً أن أظهر ساقى المتواضعتين بجوارهما. وكانت ساواكو فى رأى مفرطة فى التحفظ معنا ورغم أنه كان يمكنها أن ترفع الكلفة وتشعر بألفة أكثر مع من ستصير حماتها فى المستقبل الا أنها كانت تحاول بأقصى جهدها أن تتملق أمى وتخدمها بحماس. وكان يشوب كلامها شيئاً من المداينة وعدم الصدق وحتى فى معاملتها لى كانت تشبه الطراز القديم المحافظ رغم أنها خريجة المدرسة الثانوية. وربما تتغير بعد الزواج ولكن فى الوقت الحالى لا يسعنى الا الاحساس بأن علاقتنا أقرب الى علاقة سيد البيت بالخدمة.

وبالطبع فهذه الطبيعة هى على وجه الضبط التى جذبت أبى إليها. وربما كان هذا الفرق الصارخ يبدو لى عند مقابلة شخصيتها بشخصية أمى القوية. ومع هذا فكانت تبدو بطريقة أو بأخرى غير ملائمة لتكون الفتاة الشابة التى تنضم إلى أسرنا معى أنا وأمى. ومر شهر أو شهران على سقوط أزهار شجرة الست المستحية وشجرة الرمان، وبدأت شجيرة اللاجسترمية الهندية فى التفتح كما بدأ موز الجنة ينضج، وفى تلك الآونة أصبحت ماهراً فى التدليك تقريباً وكثيراً ما طلبت من أمى أن تخرج للمقصورة لكي أدلكها قائلاً:

ألا تأتى لأدلك؟

فكانت تجيبنى: اذن دقائق فقط.

وكان شيئاً طبيعياً أن أحل محل ساواكو عندما لم تكن ببيتنا. وحتى فى أثناء وجودها كنت أزيحها جانباً قائلاً:

أتركينى أدلك وأنظرى.

ان عجزى على نسيان تلك الأيام التى وهبتنى فيها أمى تديبها جعلنى أجد متعتى الوحيدة فى أن أدلك جسمها من فوق ملابسها. وفى تلك الأثناء بدأت ساواكو التى كانت طريقة ترجيل شعرها غريبة تتجه الى تسريحة شيمادا التقليدية مكومة شعرها لأعلى، مما أظهر للعيان وجهها الجميل الذى يشبه ما تراه فى صور "أوكيى" القديمة. ويبدو أنها كانت تنهى بذلك

للقداس البوذى المقرر عقده فى الذكرى السنوية الأولى لوفاة أبى والتى ستحل قريباً. أما أمى فقد طلبت ثياباً جديدة خاصة لهذه المناسبة فوامها ثوب يناسب تلك المناسبة الرسمية صنع من الساتان المنقوش ذى اللون الأرجوانى الداكن ونقش نصفه الأسفل برسوم نبات الخطمى ومعه حزام من الحرير الأبيض المكتنز صبغ برسوم أزهار الخريف.

وتم احياء الذكرى فى أحد معابد "هايكومامبين" وتناولنا عشاءنا فى قاعة استقبال بأحد أجنحة المبنى الرئيسى للمعبد ولاحظت وكذلك والدتى نفوراً وبروداً شديداً تجاهنا من الأقارب الذين رحل بعضهم بمجرد أن أحرقوا البخور دون انتظار مشاركتنا فى العشاء الذى أعدناه للمواسين. ومنذ أن تزوج أبى من راقصة سابقة بعد وفاة أمى استحال ما بيننا وبين أقاربنا إلى شعور من جانبهم بالأزدراء وما يشبه العداوة. والآن زاد الطين بلة خطوبتى لابنة جنائنى. وكنت أتوقع أن يثير ذلك انتقادات ولكن لم يخطر ببالى أنهم سيعاملونا بتلك الطريقة الفظة. ولم تكن أمى تكثر بهذا الأمر كثيراً لما تتمتع به من اعتداد بالنفس كعهدنا بها. ولكن ساواكو التى تجشمت عناء تحضير ثوب مزين فى نصفه الأسفل لهذه المناسبة خصيصاً كانت مغتمة إلى حد آثار شفقتى عليها. وقلت لأمى:

إنى اتساءل هل سيحفلوا بحفل زواجنا؟ هل تظنى أن هؤلاء القوم سيلبون دعوتنا؟ فقلت فى عدم اكتراث: وعلام القلق؟ انك لن تتزوج من أجلهم، ويكفى أن نكون سعداء ثلاثتنا. ولكنى سرعان ما اكتشفت أن العداة الذى يكنه لنا أقاربنا ألد مما تصورت. فقد أمضت معنا مربيى التى حضرت من "ناجاهاما" لتشارك فى القداس عدة أيام ثم تركتنا ثانية. وفى صباح اليوم الذى رحلت فيه قالت لى:

ما رأيك أن نتمشى فى الخارج قليلاً؟

ثم اصطحبتنى للتمشية فى غابة المعبد مرة أخرى. وقلت متسائلاً:

هل تريدين الافصاح عن شئ؟

"أجل."

"أظن أنى أعرف ما تقصدين. أليس بشأن حفل زفافى؟

"ليس هذا كل ما فى الأمر."

"فما الأمر إذن؟"

"حسنًا... ولكن أخشى أن يغضبك كلامى يا تاداسو."

"لن أغضب. فلتتكلمى إذن."

على أية حال من المؤكد أنك ستسمع هذا الكلام من أحد ولهذا أظن أنه يجب أن تسمعه منى."

بعد ذلك قصت على القصة التالية شيئاً فشيئاً.

بالطبع كان أقاربنا يعارضون زواجى المقبل ولكنه ليس وحده سبب استهجانهم لنا.

لقد كان انتقادهم موجه لأمى وبصراحة كانوا يتهمونا بممارسة الاتصال الجنى المحرم، ويظنون أننا بدأنا نرتكب ذلك فى أثناء حياة والدى وأنه تغاضى عن ذلك عندما أيقن أن مرضه لا شفاء يرجى منه، بل حتى كان يرغب فى ذلك من نفسه. بل أن بعضهم يشك فى من يكون والد تاكيشى الذى أرسل للريف ويشيع أنه ابنى أنا لا ابن أبى. وساءلت نفسى: ترى ماذا سمع هؤلاء الناس الذين ظلوا يتجنبونا لسنوات طويلة حتى يروجوا تلك الاشاعات الشنيعة؟

ولكنى علمت من مربيتى أن جميع جيراننا يتهايمسون بتلك الاشاعات منذ فترة طويلة ويبدو أنهم كانوا يعرفون جميعاً أنني أخلو بأى ساعات طويلة فى المقصورة وهذا على الأرجح هو سبب انتشار تلك الاشاعات. وكان أقاربنا يعتقدون أن أبى خطب ساواكو لى وهو على فراش الموت لأنه لم يجد فتاة تقبل انساناً مثلى شريكاً لحياتها غير ساواكو المولودة فى عام الفرس المضطرم. بل أن عدم حيائه وصل الى حد تفكيره فى تزويجى صورياً فقط لكي ينخدع الناس ويمكننى من الاستمرار فى علاقتى الفاضحة مع أمى، ورأوا أن كاجيكوا كان يزف ابنته الينا وهو يعلم هذه الأوضاع كلها، وأن ابنته قبلت هذا الزواج اذعاناً لارادة والدها وأنهم من البديهي طامعون فى ثروتنا. وكان فى نظرهم أن الخزى الذي لا يوصف يقع على والدي ثم أمى ثم أنا ثم كاجيكوا ثم ابنته على الترتيب.

وبعد أن أنهت مربيتى حديثها نظرت إلى من منعطف عيناها وقالت:

أرجو أن تحترس يا تاداسو فنحن لا نستطيع أن نمنع الناس من الكلام، والناس تطلق افتراءات شنيعة على بعضها.

"فلنتركهم يقولون ما يروق لهم فمثل هذه الاشاعات الغير مسئولة سرعان ما ينساها الناس."

ثم قالت والشك يداخلها ونحن نفترق:

حسناً ربما فى النهاية سيحضرون حفل الزفاف فى الشهر القادم.

ولست أهتم بقص تفاصيل الأحداث التالية ولكن يستحق أن أوجز أهمها فى كلمات وجيزة. اخترنا لحفل الزفاف يوماً حسن الطالع فى شهر نوفمبر ولكن أرضى أمى وافقتها على تجنب البدلة فى الحفل وارتديت رداءً من الحرير الأسود المزخرف بشعار أسرتنا وهو زهور البوليفينية وكان هذا الرداء تذكراً من والدي. ولم يحضر الحفل أحد من أقاربنا وحتى أقرباء أمى تغيبوا أيضاً. كان الحاضرون من آل كاجيكوا عموماً. وقام بدور الوسيط كاتو وزوجته، وكان يتمرن على غناء مسرحيات النو وفق منهج مدرسة كانزى، فجاملنا بانشاد الأبيات التى اعتدنا سماعها فى هذه المناسبات من "تاكاساجو" بصوته الرنان، وكنت أسمعها بينما تدور فى رأسى خواطر أخرى.

وبعد الزواج لم تتغير معاملة ساواكو لى ولأمى تغيراً يستحق الذكر. وقد قضينا شهر العسل فى رحلة إلى "نارا" و "ايسى" لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، وكنت أتخذ احتياطاتى لمنع الحمل دون توان. وكانت أمى تبدو فى مظهرها الخارجى منسجمة معى ومع عروستى. وبعد وفاة أبى ظلت الغرفة المتصلة بالشرفة كغرفة نوم لأمى وبقيت فيها حتى بعد زواجى من ساواكو. بينما أقمت مع ساواكو فى غرفتى الصغيرة ذات الست حصر. وكانت حجرة أمى قوامها اثنى عشر حصيرة، ولكننا كنا، وكذلك أمى، نعتقد أن هذا هو ما يجب أن يكون حالياً لأننى رغم زواجى ما زلت أعيش عالة على أمى و طالباً. ولهذا السبب كانت أمى تتولى ميزانية البيت.

وكانت أمى تعيش فى فراغ وبال خالى من الهموم مما تغبط عليه، وكانت تذكى فراغها فى كتابة الخط بأسلوب "كونوى" أو العزف على أوتار الكوتو أو التمشية فى الحديقة. وكلما أحست بتعب سواء فى الليل أم بالنهار أمرت أحداً أن يدلكها. وكان يروق لها التدليك فى المقصورة صباحاً وفى غرفة نومها مساءً.

ولم تكن تستدعيني لأدلكها بالليل وإنما دائماً تستدعى ساواكو فقط. ومن حين إلى آخر كنا نخرج ثلاثتنا الى أحد المسارح أو نقوم برحلة ولكن أمى كانت تميل إلى الاقتصاد فى الاتفاق وتولى النقود عناية بالغة حتى التافه منها، كما كانت تحذرنا من الاتفاق على الحوائج الغير ضرورية، وكانت حازمة مع ساواكو بصورة خاصة. وكانت ساواكو التى تمسك نوتة الطعام تشعر بازعاج لذلك. وكانت تبدو فى نضارة وشباب أكثر من ذى قبل وامتلأ جسمها حتى بدأ

يتدلى لحد تحت ذقنها وكانت حقاً مفرطة فى البدانة بصورة تكاد تكون قبيحة. حتى أنى ظننت أن ذلك دليل على أنها لم تعد تقلق على شئ بالمقارنة بما كانت عليه قبل وفاة أبى.

وسارت حياتنا على هذا المنوال حتى صيف السنة الدراسية الثالثة بالجامعة وفى ذات ليلة من أواخر يونيو عند الساعة الحادية عشر مساءً، كنت أويت للفرش لتوى ولكنى وجدت ساواكو تهزنى بعنف وتوقظنى.

"حدث شئ رهيب لماما، أسرع لتراها."

قالت ذلك ساواكو وجذبتنى إلى غرفة نوم أمى.

"أماه، ماذا أصابك؟"

ولم تجيبنى أمى التى كانت راقدةً وهى تدير وجهها للأرض ويدها متشبثتين بالوسادة وتنن فى وهن.

"أنظر ماذا فعلت هذه بها."

قالت ذلك ساواكو والتقطت مروحة يدوية من الأرض بجانب وسادة أمى كاشفة عن احدى حشرات أم أربع وأربعين الكبيرة وقد دهست تحتها. وقصت ساواكو على كيف أن أمى طلبت منها أن تدلك لها جسمها وكانت ترقد على ظهرها بينما كانت ساواكو تدلكها زهاء الساعة، وكانت انتهت من الكتفين حتى الوسط وبدأت رسغ الساق اليمنى وفجأة انطلقت من أمى التى كانت مستغرقة فى النوم حتى ذلك الوقت صيحة ألم وتشنجت أطراف أصابع ساقها، وعندما رفعت ساواكو بصرها مذعورة رأت حشرة أم أربع وأربعين تزحف على صدرها بالقرب من القلب. وقد بلغ الذعر منها أن نست خوفها وتحركت فأمسكت مروحة يدوية قريبة منها أزاحت بها الحشرة بعيداً ولحسن الحظ فقد نفضتها على أرض الحجرة حيث غطتها بعد ذلك بالمروحة ثم دهستها.

"لو كنت انتبهت إليها أكثر... ولكنى شغلت عن ذلك بتدليكها..."

قالت ساواكو ذلك ووجها أزرق شاحب. وفى الحال استدعى الدكتور كاتو فأجرى لأمى الاسعافات الأولية عن طريق الحقن ولكن رغم ذلك ازدادت آلامها. وكانت كل الأعراض: لون البشرة والتنفس والنبض إلى آخر ذلك تشير إلى أن حالتها أشد خطورة مما توقعنا فى البداية. وجلس الدكتور كاتو يبذل كل ما فى وسعه من أجل إنقاذها ولكن عند الفجر تدهورت حالتها ثم ماتت. وقال الدكتور كاتو: لابد أنها ماتت بفعل الصدمة.

وكانت ساواكو تبكي بصوت عال وتقول: أنا المسئولة.. أنا المسئولة.

ولا أريد أن أصف تفصيلاً ما عانيته حينذاك من أحاسيس الرعب والحزن واليأس.

وأعتقد أن القاء الاتهامات جزافاً أمر مخجل ولكنى لا أستطيع أن أقاوم بعض الشكوك التى تنتابنى. فلقد مر على بناء جدي لبيتنا الذى أسماه عش مالك الحزين حوالي أربعين سنة فأضحى الآن فى أوج جماله وأكسبه تقادم العهد به جمالاً خاصاً يلانم مبنى من هذا الطراز اليابانى الصميم. ففى عهد جدي كان الخشب مازال جديداً بحيث أنه لم يكتسب هذه الخاصية، وكلما تقادم به العهد كلما فقد بريقه الموجود الآن. أما المبنى الوحيد القديم حقاً فيه فهو بيت الشاى الذى أحضره جدي من مكان آخر ووضعه فى مكانه الحالى. وكما ذكرت من قبل فقد غزت هذا البيت أعداد كبيرة من حشرة أم أربع وأربعين فى أثناء طفولتى. ومع مرور الوقت على بيتنا وقدمه بدأت تلك الحشرات بعد ذلك فى الظهور فى كل من المقصورة والبيت الرئيسى عدة مرات. ولم يكن غريباً أن تظهر احداها فى غرفة نوم أمى. وربما رأت أمى تلك الحشرات كثيراً من قبل وكذلك ساواكو التى كانت تذهب لتدليكها كثيراً.

وانى أتساءل فى ريب: هل رأت أمى الحشرة بالمصادفة حقاً؟ من المحتمل أن يكون أحد فكر فى حيلة لكى يستعمل حشرة اذا ظهرت؟ ولكن بما أنه لا يخطر على بال أحد أن مجرد لدغة حشرة قد تفضى للموت فربما فعل ذلك على سبيل الهذر المفزع. ولكن اذا افترضنا أن أحد الأشخاص وضع فى اعتباره أن قلبها ضعيف فيمكن أن يقصد القتل العمد. وحتى اذا فشلت خطته فلن يبقى هناك دليل مادي على أنه أمسك الحشرة ووضعها هناك عن عمد. وبما أن الحشرة قد زحفت عليها بنفسها فقد يكون تفكيرى فى أن أحد الأشخاص جعلها تزحف تخميناً شريراً. ولكن أمى كان يغلبها النوم بسهولة وكلما دلكنها سواء أنا أو ساواكو استرخت واستغرقت فى نوم عميق. وكانت تكره التدليك العنيف وتفضل أن ندلكها بخفة ورفق حتى لا نكدر نومها. ولهذا فمن الممكن تماماً أن يضع أحد شيئاً صغيراً فوق جسمها دون أن تستيقظ فى الحال. وعندما هرولت إلى حجرتها وجدتها راقدة على بطنها تتلوى ألماً. ولكن ساواكو قالت أنها كانت قبل ذلك راقدة على ظهرها. ولا أستطيع أن أقنع بأن ساواكو التى كانت تدلك ساقى أمى قد شاهدت الحشرة تزحف على صدرها فى اللحظة التى رفعت فيها بصرها مذعورة. ان أمى لم تكن ترقد هناك عارية الصدر وإنما كانت ترتدى روب النوم ولذلك فمن الغريب أن ترى ساواكو الحشرة التى تزحف تحت الروب مصادفة فالمفروض أنها كانت تزحف تحت الكيمونو بعيداً عن نظرها. وهناك احتمال أن ساواكو كانت تعلم مسبقاً بوجود الحشرة هناك.

أقول مرة أخرى أن هذا ليس الا مجرد تخمين كونته مما تخيلته، ولكن نظراً لأن هذه الفكرة سيطرت على تفكيرى بصورة دائمة ولاحقتنى طوال تلك الفترة فقد فكرت أخيراً أن أسجلها هنا لأول مرة. وعلى أية حال فانى أنوي أن أجعل هذا السجل سرّاً طوال حياتى كما ذكرت من قبل.

وانقضت من الدهر ثلاث سنوات أخرى. عندما تخرجت من الجامعة منذ سنتين ألحقت بوظيفة فى البنك الذي كان والدي يعمل مديراً له. وفى الربيع الماضى طلقت ساواكو لأسباب تخصنى. وقد اشترطت على أسرتها عدة شروط صعبة لكى توافق على الطلاق واضطرت فى النهاية أن أرضخ لهذه الشروط. وتلك المسألة بغیضة إلى نفسى ولذلك فلا أريد أن أذكرها هنا. وفى نفس الوقت الذي كنت أقوم فيه بإجراءات الطلاق بعث بيتنا عش مالك الحزين الذي شهد ذكرياتى السعيدة والحزينة. وشيدت لى منزلاً صغيراً بالقرب من معبد "هونين".

واستدعيت تاكيشى من "سيريفو" ليعيش معى بالرغم من عزوفه ومعارضة والديه بالتنشئة. وطلبت من مربيتى القديمة التى كانت مازالت تعيش فى "تاجاهاما" فى الرابعة والستين من عمرها أن تحضر وترعاه ولو على الأقل حتى يبلغ السن العاشرة. ولحسن الحظ فان بلوغها الرابعة والستين لم يفقدها ما كان لها من صحة وحيوية فلم ينثن ظهرها وما تزال ترعى حفيدها.

وقالت: ان كانت تلك مشينتك فسوف أعاونك فى رعاية هذا الولد الصغير. وتركت عزلتها وحضرت لتعيش معنا. أما تاكيشى فهو الآن فى السادسة من عمره، وفى البداية لم ننجح أنا ومربيتى القديمة فى استمالته ولكنه أصبح الآن يتفهم الظروف وأصبحنا قريبين إلى قلبه. وسوف يلتحق بالمدرسة الابتدائية فى العام القادم. ان أكثر ما يسعدنى هو أنه يشبه أمى تماماً فى وجهه كذلك ورث الكثير من خلقها فى كرمها وتسامحها. ولست أفكر فى الزواج مرة أخرى لأنى ببساطة أروم حياة طويلة مع تاكيشى. فهوالتذكار الوحيد الذي يعزىنى عن أمى. ان أمى الحقيقية ماتت فى أثناء طفولتى، كما مات أبى وأمى الثانية عندما كبرت قليلاً. ولقد عرفت الوحدة، ولذلك فانى أريد على الأقل أن أعيش حتى أرى تاكيشى رجلاً وأن أجنيه هذه الوحدة التى عانيتها فى دنيائى.

فى 27 يونيو 1931
الموافق الذكرى السنوية لوفاة أمى
تاداسو أوتوكونى

جسر الأمل

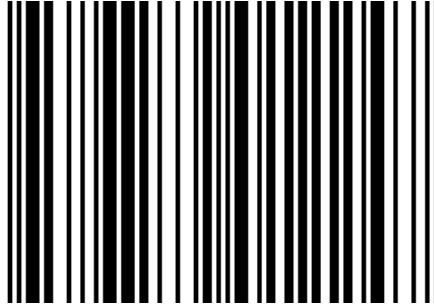
قصيدة قصيرة

جميع الحقوق محفوظة.

رقم الإيداع المحلي: 23135

رقم الإيداع الدولي: 978-977-90-1224-7

ISBN978-9-779012-24-7



ISBN978-9-779012-24-7



جسر الأمل

قصة قصيرة

جسر الأحلام

قصة قصيرة للأديب الياباني تانيزاكي جون إيتشيرو

المترجم: عبد القادر محمد الكريدي (مدرس بقسم اللغة اليابانية بآداب القاهرة)

هذه أول ترجمة عربية للقصة القصيرة اليابانية؛ أنجزها المترجم عام 1985

ونشرت عام 2013.



夢浮橋 - アラビア語訳版

谷崎潤一郎原作

アブデル・カーデル・ムハンマド修士訳
カイロ大学文学部日本語日本文学科教授

昭和 60 年翻訳・平成 25 年発行